المركز القومى للترجمة

الكونته داش

الباريسية الحسناء

من الروايات المعربة

ميراث الترجمة

ترجمة: أديب بك إسحق

تقديم: حلمى النمنم

المشروع القومى للترجمة

1337

الباريسية الحسناء

(رواية معربة)

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة . طلعت الشايب

- العدد ١٣٣٧
- الباريسية الحسناء (رواية معربة)
- الكونته داش
- أديب بك إسحق
- حلمي النمنم
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة لرواية :

الباريسية الحسناء

تأليف "الكونته داش"

صدر عام ١٩٠٢

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel. 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الباريسية الحسناء

(رواية معربة)

تأليف

الكونته داش

ترجمة : أديب بك إسحق

تقديم : حلمى النمنم



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

داش ؛ الكونته
الباريسية الحسناء / تأليف الكونته داش ؛ ترجمة : أديب بك إسحق؛
تقديم: حلمى النمنم.
القاهرة - المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩ .
١٦٤ ص ؛ ٢٠ سم .
١ - القصص الفرنسية
أ - إسحاق ، أديب ، ١٨٥٦ - ١٨٨٥ (مترجم)
ب - النمنم ، حلمى (مقدم)
حـ - العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع :٢٠٠٩/١٣٢٣٧
الترقيم الدولى : 978-977-479-439-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

مقدمة

- أديب إسحق كاتب ومترجم لمع سريعًا فى الحياة الثقافية والسياسية المصرية والعربية، وانطفأ كذلك سريعا، هو سورى .. لبنانى .. مصرى بالدرجة نفسها، وإن كانت كتاباته ونشاطه الثقافى والسياسى يقول إنه مصرى أولا وقبل كل شىء .

- ولد أديب بدمشق فى ٢١ يناير سنة ١٨٥٦م لأسرة كاثوليكية، ألحقه والده بمدرسة الآباء العازاريين فى دمشق، وكان التدريس فيها باللغة العربية والفرنسية، وتفوق فى اللغتين، وكان يتميز بين زملائه بإجادة الحديث المسجوع، وهذا ما جعل معلم اللغة العربية يقول لوالده «إن ابنك سيكون قوالا»، وبدأ ينظم الشعر فى سن العاشرة، وتعرضت أسرته إلى أزمة اقتصادية فترك المدرسة نهائيا فى سن الحادية عشرة ليعمل ويساعد الأسرة فى مواجهة أعباء الحياة، وكان قد عُيِّن كاتبًا فى « الجمرك » براتب قدره مائتا قرش شهريا، وهو مرتب ضخم آنذاك، وكان العمل فى الجهات الرسمية ببلاد الشام يقتضى التعامل باللغة التركية إلى جوار العربية، فبدأ يدرس مبادئ اللغة التركية وأتقنها خلال شهور، حتى أنه بدأ يترجم عنها، وقد أدى تميزه فى التركية إلى ترقيته سريعا ومن ثم زيادة راتبه .

ولم يكن عمله يشغله عن القراءة ونظم الشعر، وبدأ براسل المجلات الأدبية فى بيروت، يقول شقيقه عونى إسحق إنه حين بلغ الثانية عشرة كان لديه ديوان - فقد معظمه - تزيد أبياته عن الألف فى المديح والرثاء والعتاب، فضلا عن سائر ضروب النظم ورغم مافى القول من مبالغة، فإنه يثبت حقيقة أنه كان منذ الصغر غزير الكتابة والنظم

وفى سن الخامسة عشرة توجه أديب من دمشق إلى بيروت، فقد دعاه والده إلى أن يعاونه فى خدمة البريد، وهناك دخلت حياته الأدبية مرحلة جديدة، إذ تعرف واحتكّ بعدد من كتاب وأدباء تلك المرحلة، وكانت له معهم مطارحات أدبية ومراسلات شعرية، وكان قد اتخذ قراراً بأن يترك - نهائيًا - العمل الوظيفى ويتفرغ للكتابة وللصحافة، فتولى تحرير جريدة «التقدم» وكان يتولى صياغة مادتها التحريرية كلها، وأخذ يكتب فيها مقالات أدبية وسياسية، وألف كتاب « نزهة الأحداق فى مصارع العشاق »، وشرع فى ترجمة بعض الأعمال الأدبية عن الفرنسية، فقام بتعريب «أندروماك» للشاعر الفرنسى الشهير راسين، وكان ذلك بطلب من قنصل فرنسا فى بيروت، واستغرق منه ثلاثين يومًا وقدمها إلى القنصل، حيث مثلت على المسرح وتولى هو شرح الأدوار للممثلين، وكان عائد العرض لصالح البنات اليتامى، وانضم أديب فى تلك الفترة إلى جمعية زهرة الآداب فى بيروت وألقى بها عدة محاضرات .

الحدث المهم فى حياة أديب وهو فى بيروت أن التقى وصادق سليم النقاش، الذى شارك معه فى تأليف وتعريب بعض الأعمال المسرحية التى مُثِّلت على المسرح فى كل من بيروت والإسكندرية والقاهرة .

نصح سليم النقاش صديقه أديب إسحق بالسفر إلى الإسكندرية، حيث مجال الكتابة والنشر أوسع من بيروت، كانت الإسكندرية، بمعنى ما، عاصمة ثقافية لمصر، تصدر بها معظم الصحف والمجلات، وتضم جاليات أجنبية مهمة ومؤثرة، وفى الإسكندرية أعاد النظر فى ترجمة «أندروماك» بالتجويد والإتقان، كما ترجم رواية «شارلمان » وألف رواية عربية أسماها « غرائب الاتفاق » وقد فقدت هى الأخرى، وكانت أعماله المترجمة أو المؤلفة تمثَّل على مسارح الإسكندرية، وحدث التحول الأكبر فى حياته، حين قرر أن يغادر الإسكندرية إلى القاهرة أو المحروسة .

حين جاء إلى القاهرة، كان مشروع الخديوى إسماعيل قد اقترب من نهايته، لكن الحياة الثقافية كانت فى ذروتها، كان رفاعة الطهطاوى قد رحل عن عالمنا منذ سنوات وكان تلاميذه يشغلون الساحة كتابة وترجمة، وكان هناك كاتب ومثقف كبير هو على مبارك، كان فى السلطة، وزيرا لعدة وزارات، وكانت هناك حلقة مهمة تتشكل من كتاب ومثقفين وسياسيين يلتفون حول الأفغانى وجلسته الثقافية، التقى أديب بالسيد

جمال الدين الأفغانى، وتردد على جلسته فى مقهى «ماتاتيا» حيث وجوه الحياة الثقافية والسياسية، التقى أديب بالنخبة المصرية واندمج فى القضايا العامة وتأثر كثيراً بالأفغانى وأخذ عنه «دروساً فى الفلسفة الأدبية والفلسفة العقلية والمنطق وغير ذلك من الفنون والعلوم العليا» كما يقول عونى إسحق . فى تلك الفترة أسس أديب جريدة حملت اسم «مصر» ونجحت نجاحًا كبيراً وكانت نسخها تنفد فى القاهرة فور صدورها، وتميزت بعدة أمور، فقد كانت مخلصة للدولة والأمة، خدمت البلاد المصرية خدمة تذكر بما كانت تنشره من المقالات الأخلاقية والفصول الضافية في تعريف الوطنية، والدعوة إلى الاعتدال فى الحرية، كما أنها خدمت اللغة خدمة تؤثر عنها بما كانت تأتى به من الكلمات العربية للمصطلحات الإفرنجية، ولما نجحت «مصر» نجاحًا كبيراً، نقلها من القاهرة إلى الإسكندرية، وشاركه في تحريرها «سليم النقاش»، ثم أسسا معًا جريدة «التجارة» وكانت معنية بالشئون المالية والاقتصادية، وهاجم على صفحات مصر «رياض باشا» الذى كان رمز الاستبداد والتسلط في مصر، وبسبب هذا الهجوم تم تعطيل «مصر» وكذلك «التجارة» مما دفع أديب إلى أن يغادر الإسكندرية إلى باريس، لقد شعر أن مستقبله محفوف بالقلق طالما بقى "رياض باشا" ناظرا للنظار، أى رئيس الحكومة.

- أصدر أديب إسحق فى باريس جريدة سمَّاها «القاهرة» وكانت امتداداً لصحيفته السابقة «مصر» وجعل شعارها ما تغيرت الحقيقة بتغير الرسم، ولا تتغير الصحيفة بتغير الاسم، بل هى مصر، خادمة مصر. وما لبث أن عدَّل إسحق اسم جريدته من «القاهرة» إلى «مصر»، وظل فى باريس حوالى تسعة شهور، وتدهورت صحته هناك بسبب البرد القارس فى باريس فيما يروى شقيقه عونى، ولذا ترك باريس عائدا إلى بيروت، حيث تولى مجددا تحرير جريدة «التقدم» وكان ينشر بها أيضًا مقالاته، وظل فى بيروت قرابة العام، وكانت الأمور فى مصر قد تغيرت، كان "رياض باشا" قد عُزِلَ من الوزارة، إثر مطالبة العرابيين بعزله وكراهية الخديوى توفيق له، وتولى الوزارة شريف باشا، فأحدث فى البلاد انفراجة مهمة، وهكذا ففى نهاية سنة ١٨٨١ م تلقى أديب إسحق دعوة للعودة إلى مصر، حيث رخصت له الحكومة إعادة إصدار جريدة «مصر» وعُيِّن كذلك «ناظراً لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف» وعُين أيضًا «كاتب أسرار» المجلس النيابى المصرى، ونال الرتبة الثانية «بك» من الخديوى توفيق، كان توفيق فى عهد والده إسماعيل من المترددين على حلقة الأفغانى، وكانت تربطه علاقة ود ومناصرة مع عدد من الكتاب والشخصيات الوطنية، وكان مثلهم يكره "رياض باشا" ثم وقعت حوادث العرابيين، وهنا يقول شقيقه ومدون سيرته عونى إسحق إنه فى أثناء الثورة «كان من الداعين

إلى الاعتدال»، ويبدو أن ذلك لم يكن دقيقًا، ولعل شقيقه قال ذلك لأنه دوَّن كلماته عن شقيقه بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر، ذلك أن أديب ترك مصر إلى بيروت مع عدد من الشوام هاجروا فى أثناء اشتداد القتال، وعاد إلى الإسكندرية بعد أن هدأت الأمور فأُودع السجن بضع ساعات ثم أُعيد إلى بيروت، بينما عاد الشوام الآخرون فلم يصبهم أذى، وبالتأكيد فإن الخديوى توفيق لم يكن ليفعل ذلك معه لولا أنه حسب على العرابيين وأنه ناصرهم بالفعل والمشكلة أن شقيقه عونى وهو يجمع كتاباته فى «الدرر» استبعد بعضها، ومن بين ما استبعده كتابات أديب فى أثناء الثورة العرابية، ويقتضى الأمر أن يعكف أحد الباحثين على صحف الثورة العرابية ليعيد استخراج تلك الكتابات منها، لدراستها المهم كتب أديب قصيدة يدافع فيها عن نفسه، بعث بها إلى سلطان باشا. رئيس مجلس النواب، وهو الرجل الأهم فى البلاد بعد الخديوى مباشرة، خصوصًا فى أعقاب هزيمة العرابيين ومحاكمة عرابى، جاء فى القصيدة :

أيبعد ذو فضل ويدنى منافق

وبسجن واف حين يطلق عادر

ويُكرم جاسوس عن الصدق حائد

ويظلم همَّامٌ على الحق سائرٌ

ويَرفع نمَامٌ عن الريب كاشف

وبخفض كتَامٌ على العيب سائرُ

فى بيروت تولى أديب إسحق للمرة الثالثة تحرير جريدة «التقدم»، وفى تلك الفترة طبع رواية «الباريسية الحسناء»، وساءت صحته ونصحه الأطباء بالذهاب إلى مصر حيث إن جوها يساعده على تحسن صحته، فالتمس العودة برجاء إلى سلطان باشا، وأجيب إلى طلبه فقضى بالقاهرة عدة أيام، ثم انتقل إلى الإسكندرية وقضى عدة أيام بمنطقة الرمل، ومنها إلى بيروت حيث قضى شهرا هناك ووافته المنية فى ١٢ يونية سنة ١٨٨٥م، وكان عمره وقتها ٢٩ عاما، وقال الكُتَّاب فى نعيه إنه توفى مبكرًا، لإصابته بمرض الصدر، لكن جورجى زيدان حين نعاه بمجلة الهلال ألمح إلى شيء آخر « وإنما يؤخذ عليه - رحمه الله - تساهله فى طرق معاشرته وإطلاق هوى النفس فيما تشوق إليه الشبيبة، حتى أثر ذلك فى مزاجه وعجل منيته فقصف غصنا رطيبا لم يبلغ الثلاثين ربيعاً » .

* * *

نشر أديب إسحق إذن «الباريسية الحسناء» تأليف الكونتة داش، بعد عودته إلى بيروت ومغادرته مصر (منفيا أو مطروداً)، وهذا يعنى أنها ظهرت على الأغلب فى الشهور الأولى من سنة ١٨٨٣م،

والواضح أنها حققت نجاحًا ووجدت قبولا بين قراء العربية، ففى سنة ١٩٠٢م صدرت طبعتها الثانية من مطبعة التمدن بشارع محمد على فى مصر، وهى واحدة من المطابع المتميزة، نشرت أعمالاً مهمة، مؤلفة ومترجمة، أما وقت الترجمة، فقد كان سابقًا على تاريخ النشر بسنوات، وربما قبل أن يغادر بيروت إلى الإسكندرية، ففى تلك الفترة كان مقبلاً على الترجمة أو التعريب، هو نفسه فى تقديمه لـ "الباريسية الحسناء" يقول « . ترجمتها والشباب فى عنفوانه وجواد الصبا فى أول ميدانه، ثم أمررتها على النظر فى هذه الأيام .. »

وقد حدد أديب إسحق طريقته في الترجمة، ففى كتاب عن تاريخ الفلسفة، قام بتعريبه، تحدث مزحة عن أنه يعرِّب ولا يترجم، إذ قال إنى أعرِّب ولا أترجم – حفظ المعنى المقصود والفائدة الخالصة ولا أتبع الأصل فيما تمنع منه أحوال الزمان والمكان، إن مراعاة هذه الأحوال ضرورة وإن للضرورة أحكامًا، وربما كان ذلك هو المتاح بالنسبة إلى كتاب عن تاريخ الفلسفة، لكن فى "الباريسية الحسناء" لا يهتم بالضرورة وأحكامها، بل نجده على استعداد لمواجهة بعض تلك الضرورات أو الخروج عليها، إذ يقول «كنت قد التزمت فى ترجمتها حفظ المعانى كما وجدت فى الأصل، غير مبال أن يكون منها ما يخالف مشربى أو مشرب غيرى من الناس فإنى ناقل وما على الناقل من سبيل وسلكت فى التعريب مسلك المطابقة بقدر الإمكان فتبعت أسلوب

المؤلفة حريصا على مفردات ألفاظها وقوالب عباراتها أن تضيع وتفسد بالنقل عامدا إلى ترجمتها بما يشاكلها من اللفظ والعبارة إلا فيما لم أجد له مثيلا في معلومي اليسير من اللغة...» .

أى أنه لم يلتزم الترجمة حرفيا، ولديه العلة أنه لم يجد مثيلاً لبعض المفردات، فكان يتحدث بعض الكلمات، غير أنه ارتكب فى هذا العمل شيئًا آخر، لا هو بالتعريب ولا بالترجمة، بل يمكن أن نسميه تدخلاً فى صميم العمل أو لنقل مشاركة فى التأليف، إن صحت التسمية، فقد أقحم أشعاره داخل العمل، وأشعار غيره من الشعراء العرب، وتدخل فى بناء العمل، فختمه بقصيدة شعرية كتبها صديقه «الأديب المتقن الكاتب اللوذعى إسكندر أفندى العازار»، وكان هو قد طلب منه هذه الأبيات خصيصى لتناسب العمل فأرسلها إليه، إذ حكى له عن القصة وما تحتويه وقد أنكس ذلك كله على العمل الذى بين أيدينا، فهو يبدو مترجمًا، والرواية فرنسية، لكن فى بعض اللحظات يخال القارئ أنه يصدر رواية عربية.

ويبدو أنه قد حكى عن القصة لعدد من أصدقائه، وهم الذين نصحوه بنشرها، فأخرجها من بين أوراقه .

ترجمة «الباريسية الحسناء» تطلعنا على بواكير الترجمة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، حيث كانت اللغة العربية

تستقبل بعد طول انقطاع مصطلحات وأفكارا جديدة، ولم تكن الحدود واضحة بعد بين التعريب والترجمة، وبينهما وبين التأليف .

حلمى النمنم

سبتمبر ٢٠٠٨

المراجع

- **أديب إسـحـق** الدرر، جمعها عونى إسحق، القاهرة طبعة ١٩٠٩م .
- **د. عـزت قـرنى** . العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية، سلسلة عـالم المعرفـة، المجلس الوطنى للثقافة والآداب والفنون، الكويت، عدد يونية ١٩٨٠م .

مقدمة المترجم

لا يجهل أحد من ذوى الاطلاع أن للأوربيين عناية عظيمة بهذه الأحاديث المدونة المسماة قصصًا، باعتبار أنها من وسائل تهذيب الأفكار ووسائط تدميث الأخلاق وذرائع إصلاح العادات وقد كثر فيهم كتابها بكثرة طلابها، فما يمر يوم إلا وتظهر فى مدنهم قصص جديدة يتداعى الناس إليها تداعى الجيا ع إلى القصا ع، ويقبلون عليها إقبال الظمآن إلى موارد الماء.

وقد صار إنشاء هذه القصص عندهم فنا مستقلا برأسه، له أحكام معلومة، وقواعد مرسومة، وحد معين، وتاريخ مبين، فلولا ضيق المقام عن موضوعه الواسع لبسطنا الكلام عليه بيانًا لماهيته، وإيضاحًا لما كان عليه، وما صار إليه فى الشرق والغرب، فإنه مبحث ما ألمت به أقلام كُتَّابنا إلى الآن ولكنا نأتى على مايحتمله المقام من جملته فنقول

القصة فى اللغة الحديثة والأمر والتى تكتب والمعنى الأخير هو المشهور والمأثور عرفًا، فالقصة أمر أو حديث يكتب على أسلوب من الرواية ولايشترط فيه صحة الخبر، وهى قديمة العهد من وراء زمن التاريخ المعروف.

نشأت مع الأوائل فى مهاد تمدنهم وكانت ديوان معارفهم وآدابهم فامتزجت بتواريخهم واختلطت بأديانهم وعلومهم حتى أوشكت أن توجد آثارها فى كل ما كتبوه، وما برحت تتبع الأقوام فى مدارج تمدنهم وعرفانهم متنقلة من طور إلى طور، منصرفة عن حال إلى حال، حتى وضعت حدود العلوم والفنون، وميز بعضها من بعض تمييزًا يحفظها من الشبهات واللبس، فسلم التاريخ من القصص ومحصت كتب العلم من أحاديث الخرافة، وصار تأليف القصة فنا معروفًا معلوم القواعد والأحكام كما تقدم القول.

وقد اختلفت أحوال القصص باختلاف أحوال الأمم وعاداتهم وأخلاقهم فكانت حماسية فى حالة الفروسة والبداوة، أدبية فى حالة التمدن وانتشار الأدب والمعارف، غرامية فى حالة الترف والرفاهة والانغماس فى اللذات، وهى اليوم بين بين، ولكن الغالب على أصحابها أنهم يقصدون بها إلى وصف الأحوال والنوات وانتقاد الأخلاق والعادات.

وهذه القصة الصغيرة غرامية الحديث أدبية النتيجة، وهى لخاتون من نبلائهم يقال لها الكونتة داش وقد ترجمتها والشباب فى عنفوانه، وجواد الصبا فى أول ميدانه ثم أمررتها على النظر فى هذه الأيام، ومثلتها بالطبع إجابة لدعوة بعض الأصدقاء وأنا بين أشغال شاغلة وأحوال دون المراد حائلة، فأتت كما يجىء، لا كما يجب، وكما استطعت، لا كما أحب.

وكنت قد التزمت فى ترجمتها حفظ المعانى، كما وجدت فى الأصل، غير مبالٍ أن يكون منها ما يخالف مشربى أو مشرب غيرى من الناس؛ فإنى ناقل وما على الناقل من سبيل، وسلكت فى التعريب مسلك المطابقة بقدر الإمكان، فتتبعت أسلوب المؤلفة حريصًا على مفردات ألفاظها وقوالب عباراتها أن تضيع وتفسد بالنقل عامداً إلى ترجمتها بما يشاكلها من اللفظ والعبارة العربية إلا فيما لم أجد له مثيلاً فى معلومى اليسير من اللغة

وما أكتم على القارئ الكريم أن هذا السبيل لم يكن سهلاً، فإن عادات الأوربيين وأخلاقهم وخواطرهم، بل وقائعهم وأحوالهم وأشياء عندهم من الملبس والمفرش وغير ذلك مما يذكر فى القصص، مباين بالجملة لما كان من مثله عند أصحاب هذا اللسان، بل منه ما لم يوجد عندهم ألبتة، وإنما وُجِد عندنا فى هذه الأيام التى قضى بها على الناطقين بالضاد أن تكون لديهم مسميات ليس لها فى لغتهم أسماء، وأن يتغاضى علماؤهم وأدباؤهم عن هذا الخلل، فلا يجدوا غير طمطمانية الأعاجم للدلالة على الكثير مما يستعملونه لباسًا وطعامًا وفراشًا وزينة للبيت.

وقد نمقت هذه القصة بشىء من النظم منه ما صدر عن الخاطر الفاتر وهو الأكثر ومنه القديم المنقول، وأشرت إلى هذا فى بعض الأماكن بنحو قال الشاعر، أو رحم الله من قال، أو لله در القائل.

وأهملت الإشارة فى بعضها اكتفاء بالشهرة أو سهواً، ولا أذهل هنا عن إيضاح نسبة الأبيات الأخيرة التى جعلتها ختامًا للقصة، فهى لصديقى الأديب المتفنن الكاتب اللوذعى إسكندر أفندى العازار .

وقد كان السبب فى نظمه لها أنى رويت له القصة فى بعض أحاديثنا، فأعجبته نتيجتها الأدبية، فاستنشدته فيها أبياتًا من رقيق شعره فأجاب وأرسل إلىَّ فى اليوم الثانى تلك الأبيات فضمنت بها للقصة حسن الختام

المقدمة

حسب المرأة قوم آفة | من يدانيها من الناس هلك
ورآها غيرهم أمنية | فاز بالنعمة فيها من ملك
فتمنى معشر لو نبذت | وظلام الليل مشتد الحلك
وتمنى غيرهم لو جعلت | في جبين الليث أو قلب الفلك
وصواب القول لا يجهله | حاكم في مسلك الحق سلك
إنما المرأة مرآة بها | كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطان إذا أفسدتها | وإذا أصلحتها فهي ملك

أجل. ومن أسوأ الأمور تصريفًا بين الناس أمر الزواج فقد كثرت فيه المصائب، وتلونت من جراءِ اختلاله النوائب، وأكثر ما تكون مرارته فى أيامه الأول على كونها المسماة بأيام العسل؛ لأن الغالب فيها اقتران فتاة سليمة النية ساذجة النفس معرضة القلب لأنواع التأثر وضروب الانفعال برجل علم ورأى، وامتحن الأشياء حتى لم يبق فى نفسه شعة من النور فصار قاسيًا فظا محبا لذاته ولن يبرح كذلك مادام حيا، أو برجل لا يزال فى نفسه بقية من الصبابة يثيرها ما يجد فى عرسه

من عواطف الشباب الطاهرة النقية فيكشف لها سر الحب، وقوة الوجد، ولذاذات الهوى، حتى إذا مالت بكليتها إليه، وعولت فى مستقبل سعادتها عليه، وانخدعت بما عرفت من لذة الحياة، واغترّت بما علمت من سر المحبة، أغلق من دونها باب هذا الفردوس وأهبطها منه قائلاً لقد رأيت أحلامًا وصار هذا المقام عليك حرامًا. نعم إنكِ لم تتجاوزى العشرين سنا، ولم يزل شبابك غضا، ولكن قلبى قد جف. بل مات، ولست بقادر على رد ما فات، فاصبرى على اليأس الموجود، أو اندبى الرجاء المفقود، وحذار أن تلتمسى منه بدلاً عند غيرى من الناس، فإنك لن تفوزى بحلم ساعة من هذا البدل أو تفقدى فيه الراحة والسعادة وبقية الأمل، وتكونى هدفًا لسهام الاحتقار مني ومن نفسك ومن سائر الأنام، ويكون ماتذرفين من الدمع غشاوة على ما ترين من الابتسام، ثم تزادى على ما فيكِ من الندم قلقًا واضطرابًا، وعلى ما أسومك من الهجر بأسًا واكتئابًا. نعم هذا مصير النساء فى كثير من أحوال هذا الزمان، وهن مع ذلك متهمات مذمومات بكل لسان. آه لو علم المنصفون بما يعانين من العناء، ولو رأى العادلون ما يقاسين من البأساء، ولو درى أهل الحق بما يقاومن من عاديات البلاء، لبذلوا لهن الرحمة والشفقة بدل الملام والتعنيف، وقالوا فيهن قول الإنجيل الشريف: من كان منكم بلا وزر فليرجم الخاطئ بالحجر الأول وهيهات أن يوجد فى الناس من يتجرأ على ذلك ولا يكون من الكاذبين.

تمهيد

كل من في الوجود يطلب صيدا　　غير أن الشباك مختلفات
والهنا غير مستحيلٍ ولكن　　دونه في سبيلنا عقبات

فكلنا يريد إدراك السعادة، وما أحد يبلغ منها مراده، ولكل في سير أحواله طريقة، وما أحد يرى حاله من وجه الحقيقة، وقد يلتمس المرء المحال، فتنقضي أيامه بتقليب الآمال، تجيئه فيرتاح إليها، وتنقضي فيبكي عليها، والله سبحانه وتعالى قسم على الناس الحظوظ وأسباب الهناء، كما يقسم الأب العادل ماله على أولاده بالسواء، فمنا من يفتح كفه ويلقي سهمه في البحر، ومنا من ينفق في الساعة ما أعطى لكل العمر، ومنا أجواد سُذَّج كرام يبذلون سعادتهم في سبيل الحب بلا عِوَض ثم يرونها مُدَاسة بالأقدام، فالحكيم الجدير بآلاء السماء الخليق بنعماء الهناء، من ستر لذته عن أعين الحاسدين والرقباء، فهو في نعيم مقيم، وعلى أمل عظيم، يبتسم لآتيه، ولا يندم على ماضيه ؛ فينعم باللذة المستمرة، ويموت على فراش المسرة.

القصة

الحبُ كالكأس قد طابت أوائلهُ   لكنه ربما محت أواخــــره

كان يوم ابتداء قصتنا يوم عيد سعيد في قرية (بروغ) بمقاطعة (بواتو) بفرنسا، قد احتفل فيه أهل تلك الناحية بزواج (ڤكتور ديلار) بـ (مارى دملفو)، وكان الفتيان كريمين عليهم محببين إليهم، وكانا متآلفين متعاشقين على صغر، رُبيا متجاورين وشبا متعارفين متلازمين فاتحد قلباهما حبا على انتظار ساعة الاتحاد قالباً وقلباً. وكان والد (ڤكتور) غنيا كثير العقار يسكن قصراً فسيحاً قديماً في (غور) واد بهيج ظليل، أمَّا والد (مارى) فكان من الشرفاء الذين أنحت الثورة الفرنسوية (عام ١٧٨٩م) على أموالهم، وكدرت صفو أحوالهم، فكان لذلك فقيراً يسكن في قرية (بروغ) بيتًا حقيراً ولايملك غيره من العقار، غير أن هذا الفرق الواضح بين ثروة الرجلين لم يمنع الكونت ديلار والد (ڤكتور) من قبول الفتاة التي اختارها ابنه أهلاً بل كان يقول إن مال (ڤكتور) كافٍ للاثنين، وإن (مارى) لخير من كنوز الأموال.

وكان (ڤكتور) فتًى مليح الشباب، جميلاً، فائق الحسن، حاد المزاج، قابلاً للانفعالات الشديدة، لم يتجاوز الثانية والعشرين من سنيه.

وقد جمع قواه إلى ذلك اليوم فى محبة (مارى) فكانت شهواته راقدة تحت ظلال التربية الحسنة، مستورة برماد الملاينة له فيما ينعطف إليه، فلم يكن يعلم من أحوال الحياة غير التى حصلت له بالتصور، وانطبعت منه فى المخيلة فمال إلى صرف العمر براحة وسلام بين والديه وزوجته وأولاده والكتب. ولم يكن أتى المدينة (أى بواتو) غير ثلاث مرات، ولم يلبث فيهن غير بضع ساعات، إذ كان يلم به الشوق إلى المنزل والوادى والغاب والروض النضير، فيعود متمنيًا لو كان له جناحان ليطير، وجملة القول إنه كان قوى الطباع ذكيا، ولكنه غير مخرج بأساليب الحياة المدنية، فقد تصرف فى تهذيبه أناس منحطون عنه عقلاً وذكاء فما علموه غير مايعلمون، ثم جعلوا لخاطره حداً وأقاموا من دون تصوره سداً؛ فبات لايعرف مقدار نفسه ولايدرى بما هو محتاج إليه. وكان الذى علمه مبادئ العلم والأدب قسا تقيا يقال له (برنار)؛ لهذا القس لم يكن واقفًا على أسرار القلوب، ولم يكن عارفًا بأحوال الرجال، فكان يحمد الله سبحانه على أن يسر له مثل هذا التلميذ اللين العريكة الصادق الإرادة، ولا يعلم أن من وراء تلك الأزهار بركانًا، إن مسته شرارة أوقدت فيه نارًا تهدم فى طرفة عين ما بناه له من قصور الهناء والسلام لمستقبل الأيام.

أما (مارى) فكانت ساذجة كغيرها من بنات القرى، مماثلة لأليفها فى عدم المعرفة بمقدار نفسها جامعة بين فضائل النساء وشجاعة الرجل. وقد صرفت أيام طفولتها وأوقات صباها فى حجر والدها وكان

شيخًا عاجزًا، فلم يكشف لها من أسرار الحياة غير المعروف والإحسان والحب الخالص، فكانت تهمل نفسها تفرغًا للعناية بشأن من يحتاج إليها وتبذل حياتها فى سبيل من تميل نفسها إليه، وكانت جذابة العينين، معتدلة القد، زاهرة الطلعة، مليحة الجملة على أن الجمال كان أظهر من الحسن فيها. وقد جعلت نفسها وقفًا على حب (ڤكتور)؛ لما ظهر لها بالبداهة من شجاعته وكرم سليقته فكانت هائمة فيه مدلهة به وجداً وإعجابًا على علم منها بحقيقة الحب وعلى غير علم بسر الإعجاب.

فاقتران (فيكتور) و(مارى) على هذه الملاءمة الظاهرية قد بشر البيتين بنعيم مستمر وعيشة مرضية؛ فلم يحذرا معه شيئًا من عواقب الحالتين المشار إليهما فى مقدمة الكتاب حالة خلو قلب الرجل من الحب وحالة دنوه من حد الملال ولكن ذلك الاقتران قد صادف منهما حالة ثالثة غير مأمونة المآل، ألا وهى حالة عدم الاختبار؛ فإن الحب هو الوفاء ولا بد فى الوفاء من تمام العلم بالموعود، وما يحول دونه من العقاب والأمور الصعاب، فإن الخطر المجهول عسير الاجتناب.

وكان المتفق عليه بين البيتين أن (مارى) ووالدها يسكنان بعد الزواج قصر الكونت (ديلار) بوادى (مرلى) فلما عقد القران فى البيعة عادت العروس إلى بيت أبيها لتودع أحبابها وأترابها وأول أرض مس جسمها ترابها؛ فطافت مع زوجها بحديقة المنزل ثم دخلت غرفتها فيه؛ لتنظر لآخر مرة ستائرها البيضاء وما حولها من أغصان الياسمين

والريحـان، وتودع الصـورة التى كانت تستـقبلها فى الصـلاة فـأثر فـيـها الوداع فقالت لـ (ڤكتور)

– لن أعـود بعـد إلى هـذا المكان ... وأنت تعلم أنى سـائرة عنه باختيار وقبول ومع ذلك فبى من وداعه غصة لا أستطيع لها منعًا، ولا أدرك لها سرا، وأنى ذاهبة معك مستصحبة والدى إلى منزلك، فلست مبقية هنا غير هذا المنزل الصغير، وهذه الأزهار التى غرستها بيدى، ومع هذا فقلبى يكاد يذوب التياعًا، فقل لى فديتك ما سرُّ هذا الانفعال فقال

– إنك تجلبين علىَّ الغم واليأس بما تتشاءمين، فإن ذلك يدل على ارتيابك بى وضعف اتكالك علىَّ .. يا شقيقة الروح أما تثقين بحبى، أما تعتمدين على شرفى، أوَ ما تعلمين أنى أحبك حب كرام الرجال.

فكفكفت الفتاة دمعها وتجلدت وسعها لتدفع الكدر عن (ڤكتور) ثم تقدمت إلى قفص فيه بلبل غرد كانت قد علمته ضروبًا من الألحان الشجية فحلت رباط القفص وحَمَلَتْهُ إلى الحديقة، ثم نادت بابنة البستانى وأهدت إليها القفص وهى تقول احفظيه يا خليلتى تذكاراً وحينئذ

سـمعت فـتاة الحى شـدوَ البلبـلِ فـبكَت مـوَدعة بدمع مسـبلِ

فكأنمـا سمعتـه يشــدو قـائـلاً قول المتيَـم فـى الحبيب الأولِ

كم منزل فى الأرض يألفهُ الفتى وحنينـــه أبــداً لأول منــزلِ

وكانت العربات عند الباب فركب الكاواليير (دملفو) والد (مارى) إلى جانب الكونت (ديلار) والد (ڤكتور) وركب العروسان بعدهما عربة شائقة الزينة، فلما حصلت لهما الخلوة فى تلك العربة انكشفت عن سماء فكرهما سحابة الريب، فانجلى لهما الهناء فى ذلك اليوم السعيد، فلم يبق فى نفسهما عند الوصول إلى القصر غير الأمل والسرور.

والقصر هذا قصر (مرلى) كان من قبل ديراً قديمًا لبعض الرهبانيين، فاشتراه الكونت (ديلار) من أسقف بواتيه واتخذه لنفسه داراً وهو منفرد لم أر مثل وحشته، على أنى لم أجد مثل بهجته، فإن المبايت والغرف والكنيسة قد بقيت فيه على مثل ما كانت عليه من الوحشة فى زمن الرهبان، ولكن أشجاره المتفرقة المحدقة بواديه الضيق البعيد الغور، وسكوت الغابات من حوله، وخرير جدول الوادى المتدفق نهراً كالفضة على حصباء كالجواهر بين الصفصاف الباكى، والنيلوفر الضاحك، كل هذه المناظر البهية كانت فى القصر من مظاهر الأنس وتجليات الجمال.

فقضى العروسان فى هذا القصر شهر العسل أى شهرهما الأول بعد الزواج قصيراً بما طال فيه من السرور والفرح والابتهاج، فكانا يشكران الله على أن أوجدهما ويحمدانه على أن جمع شملهما، ولايشعران فيما يمر من أيامهما إلا بالهناء الخالص الذى لاتتقد فيه للوجد نار، ولا تظهر للجوى آثار، فكانت سعادتهما سارية على مهل، والأيام جارية على عجل، لكن هذه الحالة التى هى خير الحالات الدنيوية

قلَّ أن يعرف قدرها من يصل إليها، وخصوصًا من كان حاد المزاج قوى الطبع؛ فإنه لا يميل إلى الراحة ما لم يعان العناء كثيرًا، فإن حصلت له قبل الإعياء كان دائم القلق مما لا يعلم له سرا شديد الاحتياج إلى الحسِّ والانفعال، ولو كان أليمًا حتى كأنما عند كل من الناس أمانة من الدمع لا بد من ردها يومًا. نعم إن الأحزان مقبلة لا محالة آجلاً أو عاجلاً على الإنسان، ولكنه يتعجلها بالتصور فى غالب الأحيان.

ومن لم يرض نفسه بالقنوع ولو لبس التاج عاش فقيرا

وبعد القران بعام واحد ولدت (مارى) غلامًا بهى الطلعة، بارع الحسن فاشتدت به رابطة الاتحاد بينها وبين (ڤكتور) فازداد عناية بها، وحبا لها، وسكونًا إليها، واجتهادًا فى خدمتها، فكانت ولادة الغلام بركة جديدة على الزوجين، أما (مارى) فقد وجهت عنايتها، وصرفت قوتها إلى القيام بالواجبات الوالدية حتى ظهر لها المستقبل على شكل جديد، فإنها لم تكن تتصور قبل الولادة غير منزلها وواديه، فلما رزقت ذلك الغلام انفتحت لديها أبواب التأمل فى هذه الحياة، وما فيها من الطرق المتشعبة للمطامع والأمانى فى الثروة والمجد، فكانت كلما نظرت إلى رأس طفلها الجديد وهيئته المماثلة لهيئة أبيه حتى كأنه متقمص فيه، تقول فى نفسها على غير اختيار منها أن هذا الغلام جدير بأعلى وأوسع من هذا المقام، ولا ترضى له بالحالة التى هى عليها، وإن كانت أسعد الحالات لديها، وأحبها إليها، بل تروم أن يوجد بحيث يرتفع قدره، ويعظم شأنه بين

الناس، حتى يكون فيهم قبسا من الأقباس. وجملة القول إن الطفل قد فتح بين يديها أبواب الآمال، فأنقذها من الملال ونقص الكمال

باتت بلا أملٍ من فرط ما سعدت فجاءها ولدٌ أحيا لها الأملا
وما تطيب حياةٌ ما بها أملٌ بالنقص يتلو سرور النفس أن كملا

أما (ڤكتور) فكان يشعر من نفسه بامتلاء ذهنه خواطر لا يجد لها كشفًا، ولا يدرك لها كنهًا، فيسرح في غابات (مرلي) من الصباح إلى المساء متنزهًا، بل هائمًا في ذلك الوادي معتقلاً بندقيته وهولاً يطلب صيداً متعجبًا من نفسه كمن اكتشف أرضًا جديدة، وكان قد قرأ الكتب التي في خزانته ثلاثًا وجمع من شذرات الألباب وخطرات الأفكار ما يؤلف منه عدة أسفار، حتى اعتراه الضجر وتولته السآمة فبات لايحفل بهذه الأشغال، ولا يجد فيها راحة للبال فينطلق فكره في مجال الخيال، ويهيم في أودية الأماني والآمال على اختلاف بينه وبين زوجته في ذلك من حيث أن هاجسه لم يكن متعلقًا بولده، ولكن بالمجد والحب وبهارج الحياة، فكان يتصور لنفسه سؤدداً عاليًا، ويتمنى لها صيتًا باقيًا ويتخيل إدراك اللذات، ويهجس بقضاء الشهوات، وكان في عناصر وجوده من هذه العواطف جراثيم ترتفع وتنمو وتطلب الامتداد فيضيّق عليها ذلك الوادي

. فيقولُ والآمالُ ملءُ ضميره وبقلبه من عزمه أسرارُ
لي في ضمير الدهرِ سرٌ كامنٌ لا بد أن تستلّه الأقدارُ

وفى تلك الأيام قدم إلى عمالة (بواتو) بيت من نبلاء باريس الوجهاء واشتروا هناك قصراً يقال له قصر (سرڤيل) على مسافة ميلين من قصر (مرلَى) ليقيموا فيه فصل الربيع' فإنه فى تلك البلاد بهيج بديع، فتحدث الناس فى قدومهم كثيراً، واختلفت فى أمرهم الأقوال والآراء، وما كان ذلك لغرابة شأنهم ولكن' لأن سكان (بواتو) من أهل التقليد الحراص على عادات البيوتات ومبادئهم فى هيئة الاجتماع ولا سيما أهل المقامات المعروفة فيهم، فإن أكثرهم من قدماء النبلاء الذين لم يخرجوا من أوطانهم إلا للمهاجرة مع آبائهم يوم غلبت الثورة الفرنسوية على أحزاب الملك، وسار هؤلاء الأحزاب يستنجدون الملوك عليها ومن أجل هذا كان فى أولئك النبلاء احترام بالغ للعادات القديمة وكراهية شديدة للحالات الجديدة ونوع من الاحتراز والاعتزال عن مخالفيهم فى الأدب يشبه أن يكون جفوة وخشونة، فكانوا لايعرفون منزلة أهل الكياسة، ولايعلمون قدر الفنون، ولا يقبلون شيئًا يجىء من الطريق، بل ربما ناطوا السوء بما لا يفهمون مع سلامة نياتهم من سوء القصد.. ومعاذ الله أن أريد انتقاد هذه المبادئ عليهم، فإنى لا أرى فى الناس خلقًا أشرف وأقدس من حرْص المرء على ماربِّى عليه ووقع من السلف إليه، ولكنى أبسط واقع الحال تمهيداً لما سأذكره من خبر هذا البيت الباريسى الذى قدم إلى (بواتو) كما سبقت الإشارة إليه.

فقد كان هذا البيت عبارة عن برزةٍ نصفٍ من النساء، يقال لها

(المركيزة درميل) وبنات لها فتيات عذارى، ولم يصادف عند أهل (بواتو) إقبالاً، بل سرى بين جماعة النبلاء منهم أن أولئك النساء غير جديرات بالقبول رأساً فإن الأمَّ منهم كثيرة التذكر لحسنها الماضى، شديدة العناية بحفظ بقاياه والبنات متبرجات غير مصونات يظهرن بأثواب لا تستر الأكتاف ولا تحجب الصدور عن الأنظار، ومع ذلك فقد خاطر بعضهم بزيارة هؤلاء الضيوف وغلب حب الاستطلاع على غيرهم، فمالوا إلى رؤيتهم لتحقيق مايقال فيهم، فأتوهم زائرين فاجتمع بذلك من حول (المركيزة درميل) وبناتها عصابة من الشبان والفتيات الحسان، فبالغن فى مؤانستهم وإكرامهم، وأقمن لهم المراقص والأعياد، فأقبل الناس عليهم أزواجًا وأفردى، وصار قصر (سرڤيل) مجلس الذوق وملتقى إخوان الأنس والصفاء، فاغتفر الناس لأهله غرابة أحوالهم فى جنب ماجلبوه لهم من السرور والهناء.

ولم يكن بين قصر (مرلى) وقصر (سرڤيل) غير ميلين كما تقدم القول، فلمَّا استقر بالباريسيات المقام وفدنَ على قصر(مرلى) زائرات مسلمات وكان (ڤكتور) وزوجته غائبين عن المنزل، فاستقبلهن الوالدان الشيخان بما ينبغى لمقامهن من القبول والإكرام ثم حان وقت رد هذه الزيارة، فاهتم أهل (مرلى) بذلك غاية الاهتمام واجتمعوا للمشاورة فى الأمر فقال (ڤكتور) لا بد من طلب ثوب جديد من المدينة لـ (مارى)، فإن أثوابها قديمة الزى لا تصلح لزيارة مثل هؤلاء القوم، فقالت (مارى)

لا حاجة بي إلى ذلك، فإن ثوب إكليلي الأبيض (وهو ثوب الزواج) لم يلبس غير مرتين، فإذا لبسته وجعلت على رأسي عُصابة مكللة بالزهر الغضّ كنت كما يحسن أن أكون، ثم أشارت إلى أنها حامل لا تقوى على ضنك اللباس الجديد، فقال الكونت (ديلار) والموسيو (دملفو) إن (ماري) مليحة على كل حال، وفي كل ثوب فلتفعل ماتشاء، فصمت (ڤكتور) مغالباً نفسه في قبول هذا الرأي، فبقيت المذاكرة عند هذا الحد.

وبينما أهل (مرلي) يتهيّؤون لزيارة أهل (سرڤيل) إذ جاءهم من هؤلاء كتاب دعوة إليه، فلم يبق لهم من سبيل إلى تأخير الزيارة، فلبست (ماري) ثوب الإكليل، وتزينت ما استطاعت، ولكنها لم تكن منشرحة الصدر، فإنها كانت تجد من نفسها انقباضاً عن معاشرة الناس.

ولقد خبرت بني الزمان فلم أجد	في قربهم لرضى الكريم طريقا
وبلوتهم فرأيت لامع قولهم	زورا وخادع ودهم تمليقا
ورأيت أني إن كذبت منافق	وإذا صدقت فقد عدمت صديقا
فهجرتهم واخترت فكري صاحبا	لا خوف منه والفؤاد رفيقا

ثم سار الأربعة (ڤكتور) و(ماري) ووالدهما على عربة من اللاتي يراها أهل القرى بعين الاستحسان، ولا تصادف عند الباريسيين وأمثالهم غير الاستهجان، فلما وصلت بهم العربة إلى مدخل قصر (سرڤيل) ورأتها فتياته الثلاث تبسمن استهزاء بها أو استخفافًا

بأصحابها ثم دخل الجماعة القصر وكانت أثواب الرجال منهم أى أثواب الشيخين و(ڤكتور) مجعدة ظاهرة الطيات، لما أنها كانت محفوظة فى الخزائن من يوم العرس وأما ثوب (مارى) الأبيض فإنه كان أبعد من تلك الأثواب عن الزى الجديد، ولما انتهوا إلى القاعة نظرت الفتيات إلى (مارى)، ثم نظرن إلى (ڤكتور) فاكبرن حسنه وجماله العجيب وقلنَ متلهفات ·

– ما أضيع هذا الجمال.

وأحسَّت (مارى) بانحطاطها عنهنَّ، وبُعدها عمَّا رأت بهنَّ من الرشاقة وحسن الزى، شأن النبيه الذكى، فلاذت بأطراف الصمت والخفاء فلم تنطق بكلمة ولم تبد إشارة، وظهر ذلك لـ (ڤكتور)، فأخذته فيه عزة النفس، ورأى أن المقام ضنك عليه وعلى زوجته غير أنه تجلد مخافة الهوان واستعمل ما فيه من النباهة والذكاء فى اجتناب الاستهجان، فأعانه الجمال على ما أراد فارتفعت منزلته عند الفتيات ارتفاعاً عظيماً، وصح عندهن بعد انقضاء الزيارة فيما حكموا به على أهل (مرَلى) أن الشيخين محوٌ مطلق (أى لا شىء) وأن (مارى) غبية بلهاء وأما (ڤكتور) فلو انفصل عن هذه الجماعة وتخرج بآداب الاجتماع ولبس مما يفصِّله (بلين) (خياط كان مشهوراً) لكان من أحسن رجال الفرنسيس وأحقهم بحب الغانيات.

ولما عاد أهل (مرَلى) إلى منزلهم تذاكرا الشيخان فيما رأياه وما سمعاه من أهل (سرڤيل) أما (ڤكتور) و(مارى) فكانا متفكرين

صامتين يسمعان ولا يجيبان حتى جاء وقت الرقاد وهمَّ كل منهم بالانصراف إلى مخدعه فقالت الفتاة لزوجها

- لست بذاهبة بعد هذه المرة إلى محامع الناس.

- لك الاختيار فافعلي يا صديقتي ماتريدين[1].

وظهرت علائم الوحشة على (فكتور) بعد زيارته لأهل (سرفيل) واشتد به الميل إلى الانفراد والتغيب عن المنزل حتى قلقت (مارى) لذلك وألم بها الغم، فكانت كلما غاب زوجها وأدركه المساء قبل الرجوع تقف له في طرف حديقة القصر عند شبكة البركة، فبينما هي في ذلك الموقف لعدة أيام مضت من تلك الزيارة إذ طرق سمعها صوت حوافر خيل على الطريق، فأخرجها ذلك من عالم الهيمان الذى كانت فيه، فرأت الجو أدكن والسحائب سوداء، والمطر متدفقًا كأفواه القرب وقد هبَّت العاصفة، وجلجلت الرعود القاصفة، ولمعت سيوف البرق على صفحات الأفق، ثم توارت حركة الحوافر متوجهة نحو القصر، فعلمت أن القادمين وافدون عليه لاجئون من النوء إليه، فحدقت لتراهم، فإذا بامرأة ورجل من ورائهما خادم وكانت المرأة فتاة فائقة الجمال قائمة على صهوة الجواد، كأنها من فرسان الرجال فجبنت (مارى) عند رؤيتها وارتدت إلى مدخل الدهليز، فأقبلت المرأة عليها وهى تقول

- عفواً يا سيدتي عن وفودنا فجأة عليك، فإنَّا تائهون في هذا

---

(١) قد استعمل الإفرنج هذه العلامة - في المحاورات للإشارة إلى انتقال الكلام بين المتحاورين ونحونا في ذلك نحوهم فراراً من القلقلة يقال وقالت كلما انتقل الحديث

الوادى بين هذه الغابات، وقد أدركنا المطر، واشتدت الأنواء علينا، فهل فى هذه الأرض من مبيت نلوذ به من العاصفة.

- أنتم بالقرب من (مرلى) وأنا صاحبة المكان، فإن شئتم اتباعى إليه وجدتم الملاذ الأمين وكنت لكم من الشاكرين.

فأثنت المرأة والرجل عليها ثناءً جميلاً ثم قالت المرأة ·

- المقام يا سيدتى لا يحتمل الكلفة فها أنا أعرفك بنفسى· إنى ابنة (المركيز درميل) التى تشرفت برؤيتك فى منزلها فى الأسبوع الماضى، وهذا زوجى (المركيز دى ڤلمورين) وهو لا شك مسرور بما سرنى من سنوح هذه الفرصة للائتناس بلقائك.

فانحنت (مارى) لهذا الكلام شكراً وسارت أمام الضيفين فى طريق القصر فعادت الفتاة إلى حديثها فقالت

- أتيت هذا البلد أول أمس فرأيت من بهجة منظره ماحبَّب إلىَّ التجوُّل فيه، فأصابنى مارأيتنى عليه من التيه.

وما برحوا سائرين بين صفوف الأشجار الملتفة، والرعد يهزم، والمطر يهمع و(مارى) قلقة مضطربة على زوجها تلتفت المرة بعد المرة لعلها تراه مقبلاً، ولا تعير السمع حديث مدام (ڤلمورين) إلا قليلاً ثم خافت أن تحسب ذلك منها إعراضاً أو كراهية للضيافة فقالت لها

- لا تؤاخذينى يا سيدتى فإنى مترقبة رجوع الموسيو (ديلار)

(تعنى زوجها) من الصيد فقد مضى ميعاده وأخاف أن يدركه المطر ويظلم عليه الليل وأنا لذلك على ماتَرَين من القلق والانزعاج

ثم اشتدت العاصفة، وهَمَى الغيث وابلاً، حتى نفذ الماء فى ثوب (مارى) وثوب ضيفتها الحسناء مع أنه من الجوخ[١]، فلم تصلا إلى القصر إلا وقد ثقل الثوبان بالماء، وتلوثت أطرافهما بالوحول، وكان الليل قد أقبل بجيوش الظلام، وضرب فى الآفاق خيام القتام، فصار من حق الضيافة على (مارى) أن تعير ضيفتها ثوبًا تلبسه إلى أن يجف ثوبها المبلول فسارت بها إلى غرفة النوم وتركت زوجها (المركيز دى ڤلمورين) لدى حميها يعتنى بشأنه ويتدارك مايحتاج إليه، وحينئذ لمع البرق دراكًا، فتلاه الرعد والصاعقة، وانصب البرد كالحجارة وثارت العواصف، فزلزل القصر من أساسه حتى كأن عناصر الطبيعة قد هجمت عليه لتجعله دكا، فاشتد القلق بـ (مارى) من جراء غياب (ڤكتور) فكانت تصلح شأن ضيفتها وهى كالآلة الصماء لاتنطق ببنت شفة وغلب الخوف على الضيفة أيضًا فالتزمت السكوت وجلاً، ثم طال عليها الصمت فقالت الباريسية الغريبة

– أرى أن الإنسان يشعر بالحاجة إلى الصلاة والدعاء لله فى مثل هذه الأوقات، فما قولك فى ذلك يا سيدتى.

---

(١) لبعض الفتيات الموسرات من الإفرنج عناية بركوب الخيل، وهن يلبسن له ثوبًا من الجوخ طويل الذيل وبرنيطة قريبة الشكل من برانيط رجالهم الطويلة، ويقال للراكبة منهن على هذه الصورة (أمازون)، (amazone)

- إن رمت الصلاة فهلم ندخل الكنيسة قبل الرجوع إلى القاعة.

وكانت كنيسة القصر على ماتركها الرهبان قديمة رهيبة خالية عن بهارج الزينة فى صدرها تمثال ملكين كبيرين ناشرين على المقدس لواء من تحت نافذة حمراء الزجاج وليس فيها من الضوء غير قنديل ضعيف يرمى كبد الدجى بسهام دقيقة صفراء من الشعاع، فكانت لذلك مهيبة بل مخوفة للمتأملين فخرت المرأتان ساجدتين مرتعدتين وجلاً، ولكن (مارى) لم تكن خائفة على نفسها ولكن على (ڤكتور)، وبينما هما على تلك الحال إذ فاجأهما برق خاطف، وتلاه رعد قاصف. فانخلع قلباهما خوفًا وصاحت مدام (دى ڤلمورين) صيحة شديدة ووقفت مذعورة فاقدة الرشد، وحينئذ فتح الباب وكان الداخل (ڤكتور) . فبقيت (مارى) ساجدة تحمد الله والتقى ناظر الفتى بناظر الباريسية الحسناء، فلم تكن هى التى غضَّت من طرفها أولاً، وأعاد النظر فاندهش من مجلى ذلك الحسن العجيب حتى خيل له ابتداء أن ملكًا كريمًا نزل من السماء إلى ذلك المكان، ثم نهضت (مارى) فرحة برؤية زوجها مسرورة بسلامته وتقدمت إليه وهى تعيد الحمد لله وعلى أثرها الباريسية الحسناء فعرَّفتها لـ (ڤكتور) على ماجرت به العادة، فأحس الفتى بالرهبة لأول مرة من حياته، فإن لحظ الباريسية قد فعل فيه مايفعل السحر، فشعر من نفسه بالفرح والاضطراب معًا وما ألطف قول القائل :

بطرفك والمسحور يقسم بالسحر أعمداً رمانى أم أصاب ولا يدرى

رنا للحظة الأولى ولست مجربًا وكرَّرها أخرى فأحسستُ بالشرِّ

أما هى فلم تكن قادرة على تحقيق انفعالات نفسها فى تلك الحال بل كان كل مالديها عجيباً غريباً بالنظر إليها، فإن سذاجة ذلك المقام وخلوه عما تعودت رؤيته من الزخرف والزينة وتلك المرأة الصافية النية، الكثيرة الحياء، وهذا الرجل البارع الحسن الظاهر الخجل الغريب الزى كل ذلك حصل منه فى مخيلتها صورة عجيبة غير معينة وأورثها انشغالاً من حيث لاتكاد تدرى فالتزمت الصمت حتى استأنف (ڤكتور) الكلام فقال

– كنت أفتش عليكما ياسيدتى فقد أعد الطعام وجئت لأتشرف بصحبة ضيفتنا إلى المائدة.

– ثم تناول يدها من غير أن تجيبه بشىء فتوكأت عليه كما جرت العادة فانطلق بها وسارت (مارى) على أثرهما حتى بلغوا القاعة ورأوا بقية الجماعة فحيوهم التحية المألوفة وهدأ سر المركيزة الحسناء فعادت إليها سرعة الخاطر وهزتها الرقة والظرف فقالت خطاباً للجمع

– لله منزلكم ما أبهجه وأبهاه، إنه فى غاية الرونق والحسن، وإن كان مخوفاً ولا سيما فى أوقات الأنواء.

فأجابها الكونت والد (ڤكتور) متلطفاً ·

– صدقت ياسيدتى غير أننا قد ألفنا هياج الأنواء، فلسنا نخافه، فإن من تعود الشىء هان عليه، أما المنزل فلا شك أنه لم يتزين كما ينبغى لاستقبال ضيوف مثلكم كرام، فقد كان الواجب عليه أن يتلقاكم مكللاً بالأزهار مطوقاً بقلائد الأنوار.

– إن منزلكم غنى عن الزينة بما فيه من المحاسن، وكأنى منه فى قصر شائق مما يتخيل الشعراء وأصحاب القصص فى حكاياتهم.

– نحن ياسيدتى لا نقرأ القصص والحكايات، لأنَّا نخاف هواجس الأفكار.

– ما ذلك اللواء الذى يحمله الملكان من فوق مقدس الكنيسة ؟

– علمٌ منقوش عليه هذا القول الرهيب (أيها الإنسان هوذا قاضيك).

– هذا يحمل على الظنِّ بأن الرهبان الذين كانوا هنا من قبلكم قد ارتكبوا كثيراً من الآثام حتى عظم خوفهم من قضاء الله سبحانه وتعالى .

– بل الأجمل أن يظن باسيدتى المركيزة أنهم خافوا كثيراً من ارتكاب الإثم.

وفى خلال هذه المحاورة سكن الهواء، وهدأت الأنواء، وأوشك الجو أن يصفو فرام الضيفان أن يعودا إلى منزلهما (قصر سرڤيل) فقال لهما الكونت

– إنى أخاف على المركيزة من صعوبة الطريق ومشقة السير فلو بقيتما عندنا إلى الغد لكان ذلك أولى، فإنَّا بوجودكم سعداء. فقالت المركيزة :

– لك الشكر ياسيدى الكونت ألفا ، ولكنى أخاف على والدتى من القلق واشتغال البال، فإنها لن تطمئن نفسها حتى ترانى ولن يسكن روعها علىَّ ولو جاءها منى كتاب أو رسول.

ولذلك لا بد لى من الرجوع إلى المنزل وإن طاب لنا هـهنا المقام، فإن رمتم إتمام الجميل فـأسعفونا بدليل يسلك بنا سواء السبيل، فإنَّا غرباء لأنَّا من التيه.

– فقال (ڤكتور) متهيبًا مترددًا وجلاً

– إن شئت ياسيدتى كنت بنفسى لكم دليلاً.

– تلطفت وتفضلت ولكن يسوؤنى أن أزعجك فى مثل هذه الساعة وأجعل مدام (ديلار) (تريد زوجته) فى قلق وبلبال، ففى رجل من خدامكم غناء.

– إنى أعرف الناس بمسالك هذه الناحية وقد ألفت التنزه ليلاً، فلست أنزعج منه أما زوجتى فلا تقلق ولاتخاف علىَّ

– إن كان الأمر كذلك فقد رضيت بما قضيت، إنا نكون معك آمن منا مع سواك، ولسنا نروم التيه مرة ثانية فى نواحيكم، فإن التائه لا يجد فى كل حين ما وجدناه عندكم من حسن الضيافة فما بقى إلا أن أستعيد ثوبى لنسير معًا

ولقد مر هذا الحديث كله بسمع (مارى) وهى صامتة لاتخرج عن حد ما يجب على ربة المنزل فى هذه الحال، ولا تزيد على الإيماء أو الإشارة بما يناسب قول زوجها مما يفيد الرضى والقبول، ثم صحبت الباريسية إلى غرفتها لإعانتها على تبدل الثوب المستعار، وهى على حالها من السكون والاحتشام لكنه كان من طى احتشامها ضرب من الجزع

والنفور تشعر به وتغالب نفسها فيه، فإنها قد رأت المركيزة على حالة ممتازة لم تَرَها من قبل وتأملت ما عليه من الرشاقة وما تعنى به من صغار أمور الزينة التى لا تخطر لها ببال، فقابلت بين نفسها، وهذه المرأة الحسناء ذات البهجة والرواء، فتولاها الخجل والأسف، ثم قطعت المركيزة السكوت وقالت على نية التحبب إلى (مارى)

– هل لكِ ياسيدتى من ولد؟

– رُزقت ولَدين وأنا حامل بالثالث.

– أتم الله نعمته عليك، أما أنا فالغالب أنى لا أُرزق ولداً.

وتنهدت إثر هذا القول تنهد الآسف الآيس، فأجابتها (مارى)

– لا تقنطى ياسيدتى من رحمة الله، فأنت صبية والله كريم منان.

وكان فى هذا المقال من التوكل والإيمان وعلى محيا (أوچينى) من سيماء الطهر، وصفاء النية، ما أثر فى طبيعة المركيزة على كونها عسيرة الانفعال فقالت

– ما أحسن هذا التوكل وما أسعد هذه الحال!

ثم جاء الخادم يخبر الباريسية أنه قد استكمل الأهبة وشد على الخيل، فخرجت من الغرفة وودعت أهل المنزل متلطفة مبالغة فى الشكر، ثم امتطت صهوة الجواد وراضته على الرغم من الظلام حول الدرابزين،

ثم أطلقته فجرى خببًا، وسار على أثرها زوجها و(ڤكتور)، فلما غابت عن الأبصار قال الكافالير والد (مارى) :

– لو كنت فى عمر العشرين لفتنت بهذه الحسناء.

– فقال الكونت لا بدع إن فتنت كثيراً من الناس وأنشد معه لسان الحال قول من قال

وحسناء تزرى بالعزالة فى الضحى إذا برزت لم تبق يوما بها بها
لها مقلة نجلاء كحلاء حلقة كأن أباها الظبى أو أمَّها مها

فقالت (مارى) . وما فائدتها من افتتان الناس بها وهى محصنة ذات بعل.

فتغامز الشيخان وابتسما متعجبَيْن من سلامة نية (مارى) وصفاء طينها، ثم عادا إلى القاعة يعيدان من لعب النرد (الطاولة) ماقطعه عليهما قدوم الزائرين، وكل امرءٍ بشأن نفسه لاهٍ وكلٌّ يغنى على ليلاه.

(٢)

أشد الغمِّ عندى فى سرورٍ تيقن عنه صاحبه انتقالاً

وانصرفت (مارى) إلى غرفة طفليها، ولبثت هناك ترعاهما حتى أخذها الرقاد، فعادت إلى القاعة والشيخان فيها يلعبان «ويلعب بهما

الزمان»، فجلست على مقربة منهما متلهية بالزركشة عن خطرات البال، ولكنها لم تستطع قراراً، بل كانت تنهض المرة بعد المرة إلى الشباك، فتنظر إلى السماء، فترى بقايا الغيوم مبددة فى فضاء الأفق، وفضالات البروق متكسرة على صفحات الجو، وتنظر إلى الأرض، فتبصر الماء والوحول مما تخلف من السيول، فتطير نفسها شعاعاً وينخلع قلبها ارتياعاً فتدعو الله فى سرها أن يذهب عنها الخوف والقلق، ويعيد زوجها بالسلامة، فلما أتت الساعة العاشرة ليلاً غلب عليها الاضطراب وتولاها الاكتئاب، فقالت موجهة إلى والدها الخطاب

– لم يعد بعد (ڤكتور) يا أبتاه.

– لا تجزعى يابنية فلعله اختار أن يبيت فى (سرڤيل).

– وقال الكونت لو كنت فى سنه لفعلت ذلك لا محالة

– ولم يا سيدى ؟

فتواردت خواطر الشيخين عند سماعهما هذا السؤال من (مارى) فضحكا منه معاً فاستنفرت، وأعادته ملحة فى طلب الجواب ؛ فقال الكونت ·

– تسألين عما يدعو (ڤكتور) إلى أن يبيت فى (سرڤيل) ؟ فاعلمى أن هناك نساء حِساناً يسألنه ذلك لا محالة ومايهون على الفتى مخالفة أمر الحسان.

فأصابها سهم هذا الجواب فى قلبها فجرح وبرح، لأنه لم يخالج فكرها من قبله أن فى الدنيا امرأة غيرها يرتاح (ڤكتور) إلى رضاها ويسره أن يبيت فى مغناها ولم تكن تعرف الغيرة ولا العادة الفاسدة

التى تجيز للرجال على وجهٍ ما خيانة نسائهم فعظم تأثير هذا الخاطر فيها غير أنه كان لحسن حظها سريع الزوال، فإن (ڤكتور) لم يبت فى (سرڤيل) بل عاد إلى المنزل فى تلك الساعة فسكن جأش (مارى)، ولكن لم تزل من نفسها آثار الانفعال، أما هو فلم يلبث فى القاعة إلا قليلاً، ثم طلب الانصراف معتذراً بما ناله من التعب والمشقة فى النهار، ودخل مخدعه من غير أن يمر بغرفة زوجته خلافًا لما جرت به عادته من يوم عرسها إلى ذلك اليوم

ومذ حينئذٍ أيقنت (مارى) بفتور محبة (ڤكتور) واستيلاء الملل منها عليه، فكان محصل مايمر بها من الخواطر مماثلاً لقول الشاعر

لعينى كل يومٍ فيها عبرة   تصيرنى لأهل الحب عبرة
علامة شقوتى فى الحب أنى   تقلت عليه لا من طول عشرة

فكأن للأنفس الطاهرة والقلوب الرحيمة دليلاً منها على فتور المحبة قبل حصوله، أو أن للفتور أسهمًا دقيقة خافية تمس القلب متوالية عليه فتخدشه خدوشا يتصل بعضها ببعض، فتصير جرحًا كبيراً. نعم إن الرجل الأديب إذا أحس من نفسه بفتور المحبة حاول إخفاءه، وتمالك ما استطاع خوفًا على المرأة التى لاتزال تحبه، أن يصيبها سهم الصدود، ولكنه ربما وقع غير مختار فيما يدل على فتور حبه، ولايكاد يبين فترى منه عين محبة مالا يراه سائر الناظرين

إن العيون على القلوب شواهدٌ   فبغيضها لك بَيِّنٌ وحبيبها
وإذا تلاحظت العيون تفاوضت   وتحدثت عما تجنُّ قلوبها
ينطقن والأفواهُ صامتةٌ فما   يخفى عليك بريئها ومريبها

وإذا كان الأمر كذلك فيمن يحاول الكتمان ولايجهر بالصدود والهجران، فما الظن بمن يصد جهراً ولايلقى على الهجر ستراً، لا جرم أنه يصيب مهجة محبه بسهم ما لجرحه التئام ويوقد فى قلبه من اليأس ناراً ذات ضرام، ولكثر ماتصيب هذه السهام قلوب النساء فتقطع منها أسباب الهناء والرجاء ومايلزمهن فى معرفة الإعراض والفتور غير كلمة أو إشارة مما يشف عن ذات الصدور.

ولما كان الغد وجاء وقت الطعام صباحًا واجتمع آل البيت على المائدة أنبأهم (ڤكتور) بعزمه على السفر إلى مدينة بواتيه، فقالت (مارى) بانكسار واحتشام

- لعلك تروم السفر لشأن يدعوك إليه

فقال نعم ثم حول وجهه عن زوجته لكيلا يقع نظرها عليه فتلمح علامة الارتباك فيه، فقال له والده ·

- ومتى تعود يا بنى ؟

- بعد ثلاثة أيام .!

فشق ذلك على (مارى)، ولم تتمالك أن صاحت مستفهمة منكرة .

- ثلاثة أيام ؟!

- نعم . وما موجب العجب والاستنكار ؟

فأثر هذا الجواب فى نفس (مارى) تأثيراً شديداً، فبكت وقالت· آهٍ يا (ڤكتور) إنا لم نمتحن بعد بمثل هذا الفراق، ثم ضجت بالبكاء، وألقت

بنفسها على زوجها فتلقاها وضمها متأثراً مما ألم بها من الغم، ثم رام تطييب خاطرها، فقال .

– إن كنت لا تصبرين على فراقي، فلست براحل عنك يا شقيقة الروح.

– أحق ما تقول ؟

– حق لا ريب فيه . . فقال الكونت (ديلار)

– إن كان فى سفرك مصلحة، فلا ينبغي العدول عنه يابنى

– نعم فقد أنبأنى وكيلنا بالمدينة أن بعض الناس طلب منه مقداراً من المال قرضاً، فرأيت من المصلحة أن أسير إلى المدينة بنفسى لأنظر فى الأمر وأفعل ما يقتضيه.

– إن كان الأمر كذلك فلا ينبغى أن تمنعى زوجك من السفر وتعارضيه فى قضاء مايجب عليه، فأنت أم ولد صغار مسئولة عنهم فى الحال والمآل، فلا تذهلى عن ذلك، ولاتميلى مع هوى النفس

– فأجابت وهى آسفة كاسفة البال صدق والدك يا (ڤكتور) فلا بد من ذهابك إلى المدينة.

– وهل تغالبين الأسى وتجلدين ؟

– نعم . أتجلد ما استطعت .

– إذن أسافر بعد الطعام شاكراً لكم هذا القبول، وستعلمون أنى لست بأقلكم رغبة فى قرب اللقاء.

وسار (ڤيكتور) بعد ذلك مخلفًا عند زوجته وحشة الفراق، وكان قد حدث منذ الأمس في ذلك البيت ماغير حالة أهله تغييراً سيئًا، إذ وُجد في نفس كل منهم شيءٌ يخفيه، وسر يكتمه على الباقين. نعم إن ذلك السر كان خفيفًا غير ذي بال، ولكن أول خاطر يكتمه المرء عن ذويه يكون كالحبة تدفن في الأرض، فتنبت وتنمو فتصير شجرة ذات فروع وجراثيم. فلو كشف أهل هذا البيت أسرارهم، وأزالوا حجب الكتمان عن أنفسهم أول الأمر لأمكن رجوع الهناء والأنس إليهم، ولكنهم كتموا خواطرهم وحجبوا سرائرهم، فتفرقوا مبتئسين متفكرين، فلم يعاودهم الصفاء. ووقفت (ماري) تنظر العربة سائرة بزوجها على عجل حتى غابت عن نظرها، فرجعت إلى غرفة أطفالها ينشد لسان حالها

مستجير الهوى بغير مجيرِ	ومضيم النوى بغير نصيرِ
فهو ما بين عمر يوم طويلٍ	يلتظي وعمر يوم قصيرِ
لا أقول المسير أرق عيني	كان هذا العذاب قبل المسير

واستولت الكآبة على أهل (مرلَى) في غياب (ڤيكتور) فانقطعت (ماري) عن الغناء وهي تشتغل، وامتنعت من مداعبة طفلها في المرج الأخضر على بساط النبات الغض كما جرت به عادتها إلى ذلك الحين، بل كانت تطوف دهاليز القصر مكتئبة متمشية على مهل وتدخل البيعة فتدعو الله وهي ناظرة إلى الطريق، ويلح عليها والدها وحموها بالذهاب إلى (سرڤيل) لرد زيارة الباريسيات فتأبى ولكن يعود (ڤيكتور) فتسير معه، إنها قد واعدته بألاَّ لاتخرج من البيت قبل رجوعه.

ثم عاد (ڤكتور) ومن خلفه فى العربة صندوق فيه أثواب جديدة، وأسباب زينة لم يكن يلتمسها من قبل، فلما وقع نظر (مارى) على ذلك الصندوق وعلمت بما فيه، سألت زوجها عما دعاه إلى شراء تلك الأثواب فقال.

– إنى أخجل من جيراننا أن أزورهم بثوبى القديم، فأكون فيه كالرجل الباقى من عهد الطوفان، وقد علمت أنهم يستهزؤون بى من أجل ذلك، ولست أريد أن يستهزئ بى أحد من الناس.

فلم تجبه (مارى)، ولكنها لم تقنع بما قال فبقى فى نفسها شىء من سوء الظن، فلما أصبحت ورأته بلباس غرفة النوم معتدل القوام صبيحاً متأنقًا لم تعجب به كما تعودت إلى ذلك اليوم، بل داخلها الظن بأنه لم يتأنق فى ملبسه ليحسن فى عينها، وإنما تكلف ذلك لشىء جديد فى نفسه لم تحط به علما.

والريب للنفس داءٌ إن طال أعيا شفاؤه
كالسمِّ فى الجسم يسرى حتى يعز دواؤه

ثم جاء وقت الغذاء واجتمع له أهل البيت على المائدة، فتجاذبوا هناك أطراف الكلام، فساقهم الكونت (ديلار) إلى الحديث عن جيرانهم سكان (سرڤيل)، وزعم أن لم يبقَ مانع من زيارتهم، بل إنها وجبت فلا ينبغى تأخيرها إلى مابعد الغد فالتمست (مارى) أن تتخلف عن أسرتها بدعوى انحراف المزاج، فأبى (ڤكتور) ووالده إلا أن تسير معهم ومازالا بها حتى أجابت.

ولما أتى الوقت المعين للزيارة نشط لها أهل المنزل وخرجوا إلى موقف العربة، فكان اختلاف أحوالهم ومناظرهم من أغرب مارأته العين، فإن الشيخين كانا بزيهما القديم، كأنهما من بقايا أمة قد خلت و(مارى) على حالها من السذاجة التى تلازم نساء القرى، وتجعلهن مغمزًا للمدنيات ولو كن حسانًا، أما (ڤكتور) فإن ثوبه الجديد لم يكن منطبقا عليه تمام الانطباق، ولكن اعتداله الطبيعى كان ساترًا لهذا العيب فلم، تذهب جدة الثوب برونق بهائه، وحسن روائه، ولكنه ظهر فيه محتاجا إلى شىء من العادة ليكون رشيقًا

ولما وصل القوم إلى (سرڤيل) تلقاهم أهل القصر وخصوصًا مدام (مرسيل) (أم الفتيات) ومدام (ڤلمورين) (الباريسية الحسناء) بأحسن مما لقوه فى المرة الأولى من القبول والإكرام، وكانت مدام (ڤلمورين) لابسة لفافًا من الحرير الهندى والتفتاء الوردى مطرفًا بالكشاكش ترفل فيه بلا كلفة ولا قلق، فيعلم الناظر إليها أنها ليست بدخيلة على الرونق والزينة وأبهة النعيم، وكانت يداها الجميلتان مستورتين بكفوف صفراء تسر الناظرين، وشعرها اللامع الأسود كجناح الغراب مسترسلاً على كتفيها غير معقوص ولا مضفور، وكان على صدرها من الجواهر الكريمة مايروق للعين حسنًا ونفاسة، وعلى جملتها من آثار النعمة والشرف والكياسة الباريسية ما لا يقلد ولا يوصف بلسان فهى على حد قول سكريب (أحسن مافيها أن حسنها غير محدود).

من حسنها أن ليس يُوصف حسنُها   وجمالها ألا يُحد جمالُها
هى آية الحسن التى قد أعجزَت   وصَّافها من حيث عزَّ مثالها

ترنو بمقلة جُؤذرٍ ذر ببالةٍ | وارحمتاهُ لمن تصيب نبالها
وتهزُّ من تحت العلائل قامة | من غير شكٍّ قاتل عسالها
ومن استجار بعطفها من طرفها | ألقى له شَرَكُ الغرام دلالها
فإذا رنت وإذا انثنت وإذا دنت | فتنت فما من حيلةٍ يحتالها

وكان (ڤكتور) ينظر إليها نظر الحائر المندهش وهى تتصباه غير عامدة بما تظهر من الرشاقة، وماتبدى من حركات الدلال، فتارة تفتح حنجور عطرها فتشمه، وهى غنية عن الطيب وطوراً تنزع الكف الأصفر عن يدها الرشيقة، فيظهر بياض أناملها تحت سواد خاتم من المبناء حتى عظمت بها فتنة (ڤكتور) واشتدت منها غيرة ((مارى)) وهى مع ذلك تعطف من رياض الحديث كل فن، وتقطف منه لكل سامع زهرة تنفى عن القلب الحزن حتى انشرحت بمعانى كلامها الصدور كما قرت بمحاسن وجهها الأنظار.

فحديثها السحر الحلال لو إنَّهُ | لم يجن قتل السامع المتحرز
إن طال لم يملل وإن هى أوجزت | ود المحدث أنها لم توجز

فأحسَّت (مارى) بانحطاطها عن هذه المليحة حسناً وجمالاً ورشاقة وظرفاً، فأخذتها الغيرة على (ڤكتور)، ونالها من ذلك ألم عظيم فعقدت نيتها على أن تلزم البيت من بعد هذه الزيارة، فلا تكون عرضة للغبن فى الموازنة بينها وبين الباريسية الحسناء، ثم بذلت مجهودها فى تقصير

الزيارة حتى خف قومها للانصراف، ولما خلت بهم فى العربة غلب الكمد عليها فبكت بكاء مُرا، فأثر بكاؤها فى نفس (ڤكتور) فصاح.

– ما بالك تبكينَ... ؟ ماذا أصابك.. ؟

– لا شىء، إن الحر قد اشتد علىَّ، فأورثنى صداعًا أليمًا، عدمت به الجلد لا جرم أنى غير صالحة لمعاشرة الناس، فلن أحضر بعد هذه المرة مجلس اجتماع

فقال الكونت (ديلار).

– نعم رأيتك فى منزلنا بـ (مرَلى) أسعد منك الآن وأهنأ، ولكنك مخطئة فيما عزمت عليه، فأنت فى ريعان الشباب، ولاتليق وحشة العزلة بهذا العمر، ثم إنك أم ولد صغار، فإن لم تخرجى من المنزل، ولم تدخلى مجالس المعاشرة؛ فمن ذا الذى يتولى تهذيب أولادك كما يقتضيه أدب الاجتماع.

– (ڤكتور) يفعل ذلك ويحضر المجالس عنى.

– لا لستُ أرضى بهذا لستُ أرضى.

فعاودها البكاء فقالت سوف نرى. ولم تزد.

ومرت بهم بعد ذلك عدة أيام، وهم بحسب الظاهر على سابق حالهم من الراحة والسكينة، و(ڤكتور) يخرج كل يوم للتنزه ويعود قبل المساء فيكب على قراءة بعض الكتب ولا ينظر إلى شىء آخر مما بين يديه، أما (مارى) فكانت أشد تفكيراً وأعظم قلقًا واضطرابًا من ذى قبل، تتأمل فى أحوال

زوجها وترقب أعماله الغريبة، فيحصل فى وهمها من التصورات وفى نفسها من الانفعالات ما لم تشعر بمثله إلى ذلك الحين، وكان الحب دليلها فى سبيل الاعتبار والاختبار، فعلمت أن (ڤكتور) قد مسه الضجر، وتولاه الملل؛ فصار من همها أن تسليه وتواليه.

وهيهات لا يرجى السلوُّ بحالةٍ   لطفلِ هوى فيه الغرام محكَّم
دعته إلى حجر المحبة عادةٌ   رآها عن الدرِّ المنصد تبسمُ
وذاق حلاوات الحديث وشاقهُ   بوجه التى يهوى جمالٌ ممنمُ
وليس له صبرٌ فيرجى فطامهُ   إذا بعدت والطفل بالصبر يُفطمُ

وبينما هم ذات ليلة على المائدة إذ جاءهم رسول بكتاب من (سرڤيل) تدعوهم فيه مدام (مرسيل) إلى ليلة أنس ورقص وصفاء تمثل فيها بعض الروايات، ثم تكون مأدبة شائقة تحت سرادقات مما يذكر بعجائب ألف ليلة وليلة، وكان اهتمام أهل (مرسيل) بإعداد أسباب الحسن والبهجة لتلك الليلة الموعودة قد عُرف واشتهر بين أهل الناحية حتى صار موضوع أحاديثهم وسمرهم نهاراً وليلاً فقال الكونت

- إن الخياطات فى هذه الناحية غير صُنُعِ الأيدى وغير قادرات على إحكام الزى، فينبغى أن نكتب إلى باريس بطلب ثوب جديد إلى (مارى) فإنى أريد أن تكون مثل مدام (ڤلمورين) حسناً ورواءً.

- لا حاجة بى إلى ذلك يا والدى؛ إذ لست بذاهبة إلى (سرڤيل).

فقال (ڤكتور). وكيف هذا ؟

– إنى مثقلة، متعبة بالحمل، فلا أستطيع الذهاب، ولا أصبر على ضيق الثوب الجديد فسر أنت لتحدثنا بما تراه هناك من العجائب والغرائب.

فألح (ڤكتور) والشيخان عليها فى العدول عن هذا العزم، فصرفت الحديث إلى المزاح وتضاحكت من عناد نفسها كثيراً على أنها لم تتحول عنه، وكان الضجر مستحوذاً على (ڤكتور) فاتخذ عناد زوجته وسيلة لإظهار الكدر فنهض وهو يقول

– افعلى ما تريدين.

ثم ألقى البندقية على كتفه وخرج من المنزل متوجهًا نحو (بروغ) متنزها بين المروج والآثار القديمة، وكانت ناحية (بواتو) إلى ذلك العهد مرقشة بأطلال بالية ورسوم منازل عافية، منها ماهو باقٍ من عهد الرومانيين، ومنها – ولعله الأكثر – من بقايا الأعصر المتوسطة، وسكان هذه الناحية يتناقلون عن تلك الأطلال أحاديث خرافة تدل على أن ذكرى بيت (لوزينيان) الشهيرة محفوظة عندهم بالرواية، ينقلها الأبناء عن الآباء حتى كأن ذلك البيت لا يزال فى عالم الوجود، فهم يسمون كل طلل فى ناحيتهم (مرلوزين) نسبة إلى امرأة من بيت (لوزينيان) يحسبونها من الجن، وهى فى الواقع زوجة (مل) و(لوزينيان) فركبوا فى تسميتها الاسمين، وقالوا (ملوزين) ثم حرفوا هذا المركب فصار (مرلوزين) وسموا به الأطلال كما تقدم القول.

وكان بالقرب من (بروغ) برج قديم منفرد من بقايا قصر عظيم، كان في الحقيقة لـ (مرلوزين) المذكورة تصرف وقتًا من العام فيه وتقيم سائره بقصرها الكبير المعروف، وذلك البرج عالٍ، حسن الموقع، يطل منه على ما حوله من الأرض، ويرى الجالس فيه نواقيس كثير من قرى الناحية، ويشرف على السواقي المتفرقة من الجدول وماپليها من البروج والبساتين

وكان (ڤكتور) كثيراً مايقصد هذه الجهة في تنزهاته فيَهيمُ تحت قناطر القباب الخالية، أو يجلس على تلال هذم الجدران البالية فيذَّكر مجدها السابق وعزها القديم، ففي اليوم الذي ذكرناه وصل هذا المكان وهو أضيق صدراً منه في كل يوم، فصعد الهضبة المؤدية إلى البرج على مهل، فسمع من فوقه صوت غناء، فوقف له ورعاه السمع، فعلم أنه صوت امرأة غير قروية، وذلك بما وجد فيه من حسن التوقيع والتلحين والرقة التي يلزم فيها من العلم بفن الألحان ما لا يتحصل إلا في المدن الكبيرة، وكان اللحن شجيا يثير الأشجان فأثر في نفس (ڤكتور) حتى كاد يبكيه وما برح واقفًا حتى انقطع الصوت عنه فمشى متفكراً فيه إلى أن بلغ رصفة كالدرج تنتهي إلى مدخل البرج، فرفع هناك عينيه، فأبصر على خطوات منهُ فتاةً بثوبٍ أبيض وخمارٍ من اللاذ أدق مما تنسج العنكبوت، يلعب الهواء بأطرافه فتعلق بغصون الآس النابتة على جدران الأطلال وكانت هذه الفتاة جالسة محدقة بالوادي هائمة الفكر فيه، وبين يديها علبة ألوان ورقعة صورة مبدوءة تدل على أنها جالست هناك للتصوير. فلما أحست بحركة (ڤكتور) التفتت إلى جهته فعلت وجهها حمرة الخجل ووثب

على (ڤكتور) من تحت قدميها كلب صغير نباح، وكانت هذه الرسامة الفتاة هى المركيزة (دى ڤلمورين) الباريسية الحسناء.

رسامةٌ قد جرى توقيع حاجبها
تظلم أهل الهوى والأمر ما رسمت
تحكمت فى قلوب العاشقين كما
شاء الجمال ولم تعدل بما حكمت
كريمةٌ غير أن البخل عادتُها
يا حسن باخلةٍ فى الحسن قد كرمتْ
وافت لترسم أزهار الرياض ضحى
فكان فى خدِّها بعض الذى رسمت
واستقبلت أقحوان الروضِ فابتسمت
عن مثل ما صوَّرت منه وما علمتْ
فقُلْ لواصفها ما أنت منصفها
فقد علت عن معانى وصفها وسمتْ
ما البدر إنْ سفرتْ؟! ما الغصن إن خطَرت؟!
ما الظبى إن نفرتْ؟! ما الدر إنْ بسَمت؟!

فاضطرب (ڤكتور) عند رؤيتها وصار بين الخجل والوجل من أن يكون أورثها انزعاجًا، فاعتذر والتمس العفو ما استطاع كلامًا فقالت

– أتيت على الرحب فإني جئت هذا المكان مستصحبة (تريم) رفيقًا (وأشارت إلى الكلب) فأنسيت نفسى تأملا فى جمال هذا الوادى. لاجرم أن بلدكم بلد نعيم وبهجة يحمد فى مثله المقام.

– إن بين سرڤيل وهذه الأطلال بعداً غير قليل. فكيف جرؤتِ على الخروج إليها بغير محامٍ ؟

فأومأت إلى كلبها وقالت:

– وما شأن هذا.. لا تستخفن به فهو ينبهنى وكفى بالتنبيه وقاية، فإن كثيراً من أخطار هذا الوجود متى علمت لم تعد شيئًا محذوراً.

– صدقت إلا أن فى غاباتنا أفاعى سامة لا يدفع شرها مثل هذا الرفيق.

– ما الشر وما الخوف من الشر. أيحسن بى توقع البلاء وحرمان النفس من لذة الحياة خوفًا منه، وأن أترك من أجله التنزه على انفراد وهو أبهج مالدىَّ.. إنى أحب الحادثات والغرائب، فإذا أتيت مكانا فدأبى أن أجوس خلاله وألم بكل بقعة منه، فأسير منزهة فيه متسلحة بعلبة الألوان والمروحة وكتاب الرسم كما ترى لا أخبر أحداً ولا أستصحب رفيقًا رغبة فى العزلة والحرية وفراراً من الكلفة الملقاة علينا نحن النساء بحكم العادات وهرباً من ضيق الصدر فى متسع القاعات.

فاجتماع الأحباب صفو ولكن كدرتــه مؤونـــة الاحتشـــام

فهنيئًا للرجال أنهم سعداء بالحرية والاستقلال.

فعجب (ڤكتور) من هذا الكلام غاية العجب، لأنه لم ير المرأة من قبله إلا باعتبار أنها خلق ضعيف محتاج إلى الهداية فى سبيل الحياة، فلم يتصور إمكان ظهورها بشىء من الاستقلال والحرية وإقدامها على تذليل العقبات الحائلة بين فكرها وتجليات الذكاء، وجملة القول إنه لم يكن يعرف من النساء غير قعائد البيوت فلمًا سمع كلام المركيزة عرف المرأة الحسناء، فغلبت عليه الحيرة والدهشة فقال بعد الصمت.

– كيف كيف لا تخافين ؟

– وممَّ أخاف؟ أمن حية تلسعنى كما أنذرت. أتحسبنى حريصة هذه الحياة التى حظر بها علينا نحن النساء الضعيفات أن نعيش كما نريد. لا لعمرى فهى حياة غير جديرة بالحفظ فإن ضاعت فلا أسف عليها.

حرص الرقيق على الحياة حكى   حرص البخيل وما له مال

فالعمر آمال وليس لمن   فى الرق يفنى العمر آمال

فازداد (ڤكتور) حيرة فى أمر هذه الفتاة كيف ينالها الملال من الحياة وكيف لا ترهب الموت وهى فى ريعان الشباب ونضارة الحسن وتمام النعمة، فتساءل عما تحتاج إليه فى نيل السعادة وعن سر شوقها إلى الاستقلال وما الذى تفعل إن حصلت عليه فكانت هذه المسائل كلها أسرار غامضة عنه فاتسع بها مجال التصور لديه، فتسابقت خواطره فيه وما يسبق الخاطر هاجس القلب فى مثل تلك الحال إلا إذا كان من القوة بمكان.

ولم يكن علم المركيزة بأحوال (ڤكتور) كافيًا فى بيان ما أثر كلامها فى نفسه على أنها أحست منه بانفعال غير معهود، فمالت إلى استطلاعه

منه ثم لم تجرأ عى ذلك، فالتزمت وإياه السكوت حتى سكن خاطرها واطمأنت نفسها فقالت

- لعلنا نراك ومدام (ديلار) (تريد زوجته) فى (سرڤيل) يوم تشخيص الرواية.

- أما أنا فلست أتأخر عن هذه المسرة، وأما زوجتى فهى متثقلة متألمة فلا تستطيع الفوز بهذا الإرب

- إنى أراجع دورى فى التشخيص منفردة له متنزهة، فهل تعرف الروايات التى سنشخصها

- ما رأيت إلى الآن تشخيص رواية ولا قرأت من الروايات إلا منظومات أدبائنا المشهورين.

- يا عجبًا ما رأيت إلى الآن تشخيصًا.

- كيف يتيسر ذلك ولم أتجاوز حدود هذا الوادى.

فحدقت المركيزة بـ (ڤكتور) تحديق المستغرب لما بين يديه، فإنها لم تكن رأت من قبله رجلا من طبقته، يجهل كل مالم يره مدونا فى الكتب، ويكون على حاله من الجمال الباهر والذكاء الظاهر ولا علم عنده بكونه جميلاً ذكيا، ثم أدركت بما فيه من فراسة النساء أن سجاياه الفطرية الفائقة لو أخرجت من مضيق ذلك الوادى لأثمرت خيرًا وصارت بعد حين من محاسن الوجود، فاجتمعت قوى فكرها على الرغبة فى استقدامه إلى (باريس) فقالت غير مختارة:

– ينبغى أن تجىء (باريس).

– أريد ذلك ولا ينبغى لى

– وما السبب؟

– عفوًا إنى لا أستطيع الجواب.

– لك الأمر.

فاحمر (ڤكتور) مما قاله خجلاً وخاف أن يكون أساء الأدب فى امتناعه عن الجواب، أما هى فتلاهت عن ذلك وقالت

– لا بد أن يكون لهذه الأطلال قصة غريبة.

– إن لها قصصًا كثيرة، ولكن لايجدر بالذكر غير واحدة منها.

– أتريد أن تقصها علىّ ؟

– أخاف ألاّ أحسن الحكاية، ومع ذلك أقول امتثالاً للأمر.

«قد سمعت لا شك بحديث الجنية (ملوزين) أميرة (لوزينيان) المشهورة التى كان لها الملك فى جانب عظيم من هذه البلاد، فتلك الأميرة كانت تسكن هذا البرج وههنا حل بها المصاب الذى ما برحت تبكى وتنوح من جرّائه منذ خمسمائة عام أو ستمائة فيما يزعمون، وكان لها خلوة فى إحدى القباب التى تلوح لنا تحت هذه الهضبة، تنعكف فيها على السحر فى كل يوم من منتصف الليل إلى الصباح متحجبة عن الأبصار، علمًا منها بأن لو رآها أحد من الناس على تلك الحال لفسد

سحرها أو ضاع، وكان لها عشيق تهواه ويروم أن يكون لها بعلاً، وكان العهد بينهما أن يتركها وشأنها بعد منتصف الليل ولا يلتمس العلم بمكانها في ذلك الوقت، فثبت المعشوق على هذا العهد مغالبًا فيه هوى النفس حتى غلبه في إحدى الليالي، فتبع الساحرة من غير أن تشعر به ورآى فعلها في الخلوة فانمسخت للحال حية (وبقي من ذلك في يدها أثر لا يزول)، فلما بدت للرجل على تلك الصورة أغمي عليه من الخوف تحت هذا الدرج، فأتته وردَّتْهُ إلى الرشد، ثم أعانته إلى الرجوع إلى المنزل، فلما أفاق من الإغماء والدهشة صد عن الأميرة وعابها بالسحر، فأيقنت بوقوفه على سرها ولزمها إبعاده اضطرارًا، فأمرته بالخروج ففعل محتارًا راضيًا، ولكنه مالبث أن جد به الشوق إليها، فندم على ماوقع منه وأرسل إليها يلتمس العفو والسماح، فجنحت إلى ذلك، ولكن منعها شيطانها عنه فردت الفتى خائبًا فتولاه اليأس، فاعتزل في بعض الأديار حتى مات، ولم تكن هي تستطيع الموت، فبكت وملأت غابات هذه الناحية نواحًا ومذ حينئذ اشتهر صراخ (ملوزين)، وكان نوحها إنذارًا بموت أحد من بيت (لوزينيان) فلما انقرضوا صارت تنوح إنذارًا بمصائب الناس، فإذا نزلت بالبلد نازلة سمعت الفلاحين يقولون لا عجب فقد سمعنا صياح (ملوزين).

فلما فرغ (ڤكتور) من حديثه قالت مدام (دي ڤلمورين)

– لقد اختارت هذه الساحرة لنفسها حياة شقية، ولم تجد من لذة الوجود مايهون تسليم النفس للشيطان.

– يزعمون أنها ما زالت حية. وكيف كان الأمر فهى لا شك حية الذكر!

– ثم كيف يقال إنها كانت تحب وتعشق ولو صدقت فى دعوى الحب لضربت بعصا السحر وجه شيطانها، ولم تترك من تهواه، فليس فى الأرض ولا فى الجحيم مايغنى من الحب.

فــإن المحب يعــانى الصــدودَ ويقضى الوعود ويرعى العهودا
ويصـبـر فى الحب صبـر الحليـد يلين الحديد ويدنى البعيدا
ويفنى الوجود وفاءً وجُـودا ويحسب ذاك الفناء وُجُودا
فإن عاش عاش حميداً سعيداً وإن مات مات فقيداً شهيدا

وما فرغت باريسيتنا الحسناء من هذا الكلام الصادر من القلب حتى أخذها فيه حياء النساء، فعلت وجهها الزاهر حمرة الخجل، وكان (ڤكتور) أشد منها استحياء على أنه كان حائر الفكر، تائه اللب، يحسب نفسه فى منام، وما يسمعه أضغاث أحلام، ويرى تلك الحسناء مستولية على لبه تتصرف فيه كيف تشاء، فتدفعه فى طرق لا يعرفها إلى غايات لايدركها؛ فيهيم فى تلك المسالك هيام طرف الناظر من قمة الجبل الرفيع.

ومالت الشمس إلى الغروب وهما لاهيان ذاهلان عنها بما كانا يتجاذبان من أطراف الحديث من بضع ساعات، وكانت مدام (دى ڤلمورين) تتوقد فى كلامها ذكاء، وتلتهب حدة، وتذوب تصوراً، وتسيل رقة مقلبة أوجه الحديث، متفننة فى ضروبه، متنقلة فى أساليبه، تجد؛ فتثير

الأشجان وتمزح فتذهب الأحزان، وتظهر العلم حتى يقال هذه آية الدهاء والذكاء، وتوهم الجهل حتى يقال هذه غاية السذاجة والصفاء و(ڤكتور) مستهدف لتلك السهام بلا اختبار يحميه ولا اعتبار يقيه . ثم تنبهت الباريسية الحسناء لميل الشمس إلى الغروب فخفت للانصراف وقالت لـ (ڤكتور).

– قدر عليك أن تكون دليلي في مسالك هذا البلد، وأن أراك بين يدي كلما كنت محتاجة إليك حتى عجزت عن القيام بحق الثناء عليك، فهل لك أن تبلغني منزلنا غير مأمور؟

فخف لذلك وانشرح وداخله السرور والفرح. فقال لك الأمر وعليَّ الشكر، وانحدرا من الهضبة حتى بلغا شاطئ الجدول والنسيم تزف إليه والغصون تميل عليه.

عـديـرٌ دار نرجـسـهُ عليـه ورقَّ نسيـمـهُ وصـفـا وراقـا

تـــراهُ إذا حَللْت بـــه لـــوردٍ كـأنَّ عليـه من حـدق نطاقـا

فقالت المركيزة: إن بي ظمأ وهذا ماء زلال فقال (ڤكتور). بل على خطوات قليلة من هذا المكان عين ماء أصفى من هذا الجدول وأشفى، فإن شئت صرنا إليها، فهي من أبهج متنزهات البلد فأجابته إلى ذلك. فدخل بها بين ألفاف الأشجار على منحدر الهضبة حتى بدت لها العين من تحت قبة متهدمة يتكسر الماء على أحجارها ومن حولها شجرات كبيرة من السنديان وارفة الظلال وهي رائقة صافية كعين الديك أو مرآة الحسناء يتخللها النبات الأخضر، كأنه ترصيع الزمرد على صفحات

الماس وعلى الأرض مما يليها بساط سندسى زركشته يد الربيع بلآلئ الأزهار وجملة العين وما حولها فتنة للأبصار.

فجلست المركيزة تشرب الماء بكفها البيضاء فناولها (ڤكتور) متهيباً راجف اليد حقة حمراء تسر الناظر آيلة إليه من أمه يحملها لورود الماء فى الصيد، فتأملتها وأعجبت بحسب لونها وشكلها ومافيها من النقش، ثم أعادت النظر إلى العين وأطلقته فى مجال جمال الوادى فرأته كما قيل

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاهُ مضاعف الغيث العميم

نزلنا دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذَّ من المدامة للنديم

يصدُّ الشمس أنى واجهتنا فحجَبها ويأذنُ للنسيمِ

يروع حصاهُ حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيمِ

فقالت لله هذا المكان ما أبهجه وما أبهاه، ولقد وددت لو كانت لى هذه العين لأبنى عليها قبة تحار فى حسنها العين، فهى أصلح مكان رأيته لهيام النفس فى أودية التصور والخيال، فهل تعلم لمن هى؟

– لخادمك يا سيدتى فإن المكان بجوار قصرنا وهو مما وهبنى والدى يوم تزوجت.

– أتريد أن تبيعنى هذه العين ؟

- أقدمها خدمة على مقدارى، وحسبى من العِوَض القبول.

- لا. لست أريد إلا الشراء، وكفانى أن أكون ملكة فى هذه المملكة الصغيرة، فأنقض فيها، وأبرم وأفض، وأنظم، وأبنى، وأهدم كما أريد فبِكَم تبيعها منى ؟

- بصورة من رسم يدك.

- قبلتُ على علم بأنك مغبون، ومن الغد أرسل الفعلة إلى هذا المكان للبناء.

- ونسميها عين التلاقى.

- أحسنت.. ولكن قد مضى الوقت وأقبل الظلام، فسر بى إلى البيت.

فأجاب ممتثلاً وسارا صامتين والهوى يتكلم في قلب (ڤكتور) بما لا يكاد يفهم وكأنه يقول.

أراك فاستحيى فأطرق هيبة وأحفى الذى بى من هواك وأكتم

وهيهات أن يخفى وأنت جعلتنى جميعى لساناً فى الهوى يتكلم

أما (أليس) (وهو اسم الباريسية الحسناء) فكانت مشغولة النفس بما مرَّ بها فى ذلك اليوم تقلب فيه الخواطر متقلبة بين التصورات بما فيها من الميل إلى الغرائب، لا تنظر فى عاقبة الأمر ولا تتنبه لحقيقة

شأنها وحالة (ڤكتور)، فيا أسفاكم فى النساء من حسناء يضلها الخيال؛ فتنقاد له خفة وطيشًا فترمى بالذنب وتتهم بفساد النفس، وماهى فى الواقع والحقيقة إلا ذاهلة عن عاقبة الأمر ولو فطنت لكل مايترتب على العدول عن سراط الواجبات من فقد السعادة، وزوال الهناء، وضياع الراحة لما اتخذت غير ذلك الصراط سبيلاً.

ولما وصل الرفيقان أول طريق (سرڤيل) شكرت (أليس) لـ (ڤكتور) سعيه، وأذنته بالفراق بعد إذ واعدته باللقاء فى الغد عند العين قائلة وهناك أخبرك بما عسيت أن أعزم على إنشائه فى العين وما حولها، وألتمس رأيك فيه، فإن حقوق الجوار واجبة الرعاية، ثم ودعته باسمة وشردت عنه فى طريق القصر شرود الغزال.

(٣)

هو الحب فأسلم بالحشى ما الهوى سهل

فما اختاره مضنى به وله عقل

فبقى (ڤكتور) ناظراً إليها، شاخصًا بها حتى غابت عن بصره، فحول قدميه إلى حيث كانت أولاً حتى وصل ذلك المكان، ولم يدر فمر به النسيم بَلِيْلاً، فعبث بشعره، ورطب جبينه الملتهب، فجلس حيث كانت جالسة يلتمس فهم ما لم تصل مداركه إليه من انفعالات نفسه، فيرى أن هناك جمالاً فائق الوصف يجذبه نحو تلك المرأة التى مارأى مثلها فى النساء إلى ذلك الحين، ولا يدرك لهذا الأمر سرا ولايجد له حدا حتى

غربت الشمس، وأقبل الظلام فتنبه لوجوب الرجوع إلى (مرلى) فانقبض من ذلك صدره أيما انقباض

وكانت (مارى) تنتظر عودته عند باب الحديقة وبين يديها طفلها البهى، فلما رأتهُ أسرعت إليه تعانقه وتقبله بصفاء قلب لم يداخله الفساد، ثم تأملته، فإذا هو مفكر منزعج، فخافت أن يكون منحرف المزاج، فأقبلت عليه تهتم بشأنه وتعُنى بخدمته عن صدق وداد واختصاص، فلم ينفر منها ولكنه لم يستطع إخفاء ما فى النفس

دلائلُ الحبً لا تخفى على أحد كحامل المسك لايخلو من العبق

ولما دخل غرفتها التى هى مقدس شعائر الوالدية، ومجلى فضائل الزوجية، وجدها خالية من الزينة والبهجة، ثم نظر إلى زوجته فرأى بساطة زيها الذى لم يكن فيه من الحسن غير النظافة والطهر، فأذكرته بما رآه صباحًا من محاسن الباريسية الحسناء. وكانت (مارى) تراقبهُ وهى صامتة وتحاول الوقوف على سره، فلا تستطيع ثم أرسلت إليه طفليهما فقبلهما على الجبين قبلة غير مشتاق، فأعادتهما إليها مكتئبة وضمتهما إلى صدرها إنصافًا مما رأته من ظلم أبيهما ثم دنا أحدهما من وعاء صيد أبيه وأخرج منه الحقة الحمراء التى شربت بها الباريسية الحسناء فانتزعها أبوه من يده بعنف وأودعها الخزانة قائلاً لاينبغى لأحد أن يمسها مذ الآن.

ولم ينم (ڤكتور) بل أحيا الليل هائمًا فى القصر، فكان تارة يدخل الكنيسة للصلاة فلا يرى فيها غير صورة واحدة: صورة (أليس)، وحينا

يتمشى فى الحديقة تحت الأشجار يرجو تسكين ما به من تباريح الحمى برطوبة الهواء وما هى إلا نار الغرام ذات الضرام.

وما كاد يتنفس الصبح حتى خرج من القصر من غير أن يشعر بخروجه أحداً حتى أن والدهُ لم يتمالك أن قال حين لم يره على المائدة أن لـ (ڤكتور) شأنًا جديداً فى هذه الأيام، أما هو فلم يجسر على الدنو من الموعد قبل الساعة المعينة خوفا وحياء فأخذ يطوف بالضواحى بين المروج والبساتين فينشده «معى» لسان الحال

أودى بصــبـرك لوعــةٌ وسـقــامُ	أم راعك الرقـــــــاءُ واللوامُ
أم أنت أنت فما شكوت من الجوى	لكن دمـــعك بالهـــوى نمامُ
كفكفـهُ لا يُطفِىء بقلبكَ وجدهُ	إن السـلوَ على المحبً حــــرام
واشرب كؤوسَ الذكر مترعةً به	فـالذكـر كـأسٌ والغـرام مُـدامُ
واطرب وكن فى كل وادٍ هائمًـا	منه فـأهل الحبً قـبلك هامـوا
ذكروا المعاهد والعهود فما انطوى	فى نشــــرهم نقضٌ ولا إبرامُ
وتواجدوا فى الذكرِ وهى طريقة	لحقـيـقـةٍ فـيـهـا الهـيـامُ مـقـامُ
واستقـبلوا وجـه الصـباح بأعينٍ	سـهـرتْ دُجـاهُ والأنامُ نيـامُ
وسرتْ بهم أرواحهم نحو الحمَى	فـســعـتْ على آثارها الأجـسـامُ

وقـد عـجب الفـلاحـون من رؤية (ڤكتـور) على هذه الحـال فى تلك الساعة؛ لأنهم لم يروه من قبلها بكرة فى البساتين، والبسطاء من الناس لا يعقلون كيف تحول أحوال النفوس.

ولما أتت الساعة الثانية انطلق (ڤكتور) نحو عين التلاقى وكان وهو بلباس الصيد البهى أحسن منه بثوب الزيارة، فرأى المركيزة جالسة فى مكانها بالأمس وقد أعمدت رأسها بيديها فعل المتفكر المتأمل. فتلقته بالإقبال وحسن الاشتمال ولكن كان فى نفسها شئ من الاضطراب وعلى وجهها علائم الاكتئاب، ولما جلس قالت له بعد التحية المعتادة فكرتُ أمس فى أمر العين، فرأيت أن أبقيها على ما هى عليه الآن، فإن هذه الرسوم والآثار ملائمة لموقعها الطبيعى وأخاف أن يضيع حسنها بالإصلاح فدارت بينهما المذاكرة على هذا الموضوع، فأظهر (ڤكتور) كل ماليده من العلم وكل مافيه من الذكاء وأوضح رأيه فى الأمر بأفصح لسان وأعذب بيان، حتى مالت (أليس) بكليتها إليه، فتقاربت منهما الروحان وتناسب القلبان، بما بينهما من صلة الشباب، ورابطة الجمال، ومافى ذلك المكان من مظاهر الحسن وتجليات الأنس، فما افترقا إلا وفى قلب كل منهما حب عظيم ووجد مقيم يشعران به ولا يبوحان، وقد اتخذت نفساهما حبًا، فكانا على حد ماقيل.

بكم اتحدتُ هوًى فلو حييتكُم قلت السلام علىّ إد أنتم أنا

وتواعدا باللقاء من الغد فى (سرڤيل) حيث تكون ليلة الأنس الموعودة عند الباريسيات، ثم انصرف (ڤكتور) محتملاً جسمه إلى منزله وتاركًا فؤاده عند (أليس).

أحذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى يصركُم لو كان عندكَم الكلُّ

فرآه آل بيته على تلك الحال من تشتت البال والبلبال، فبالغوا فى الاعتناء بشأنه ودارت به زوجته وأولاده يحاولون تنبيه فكره إليهم وهو لاهٍ

عنهم بالتى سلبته ذلك الفكر، حتى أنه خالف العادة فى النهوض عن المائدة قبل أبيه وسائر ذويه بلا عذرٍ ولا استئذانٍ فعجب والده من ذلك ولم يتمالك أن قال

- ياللعجب. ما الذى أصاب (ڤكتور).

فقالت (مارى) تولاه الضجر ياوالدى، واشتاق إلى معاشرة الناس، ومال إلى اختبار أحوال الاجتماع فلا بد من إرساله إلى المدينة، فنحن هاهنا لا نشفيه ولا نكفيه.

- إن كان الأمر كذلك فاذهبا إلى (بواتيه) واصرفا هناك فصل الشتاء.

- أما أنا فلا أحبُ المدينة، ولست بتاركة منزلنا، فقد خلقت ألوفا لو تركت هذا الوادى لمت غماً. فليذهب (ڤكتور) وحده وأنا أقيم.

- كيف تصبرين على فراق زوجك ؟

- إنى أريد له السرور والسعادة ولا بد لى من الصبر فللضرورة أحكام، فأنا أقيم هاهنا مع الأولاد ولا شك أن (ڤكتور) يعود إلينا ولو بعد حين فإن الله مع الصابرين ثم أعياها التجلد فسقطت من عينها دمعة سخية فمسحتها بأطراف البنان وقامت لتحلق بزوجها فى غرفته، ولما كان الغد لم يخرج (ڤكتور) من المنزل بل اهتم إلى المساء بإصلاح شأنه ومراقبة لباس الخدم ومسح العربة والخيل اهتماماً لم ير منه قبلاً، ثم عنى بأمر لباسه فتأنق فيه ما شاء مسرعًا غاية الإسراع حتى تم استعداده للزيارة قبل والده بنحو ساعة فاعجبت به (اوجينى) وهو على

تلك الحال إعجاباً ممزوجاً بالشك ولم تجرأ على معانقته ولا تقبيله مخافة أن تجعد الثوب أو القميص.

وأقيمت المأدبة فى (سرڤيل) عند الباريسيات على وفق المرام وجرى تشخيص الروايات الموعودة، فكانت مدام (دى ڤلمورين) المركيزة الحسناء هى المشخصة لأهم الأدوار، فأحسنت فى التمثيل نهاية الإحسان حتى جرى مدحها على كل لسان، فلما تجلت على المدعوين فى بهرة المنتدى بعد الفراغ من التشخيص حسدتها النساء حسد الضرائر للحسناء وخفقت لها قلوب الرجال افتتانا بكمال ذاك الجمال ولا تسل عما جرى على (ڤكتور) وهو الذى ما حضر قبل تلك الليلة مثل هذه المأدبة ولا رأى قبل تلك الرواية تمثيلاً، فكيف به والتى استعبد قلبه هواها واسترقه بيان بديع معناها هى المشار إليها والمعوَّل عليها فى المأدبة والتمثيل . على أنه كان آخر من تقدم إليها للثناء عليها فلما، رأته انعطفت إليه كأنما هى تطلبهُ من دون سائر القوم وقالت

- هل سرَّك مارأيتهُ من ؟

- آه يا سيدتى.... ولم يزد.

والتزمته بقية الليلة لم تشتغل عنه بسواه ولم ترقص؛ لأنه لم يكن من الراقصين، وهى مع ذلك تتصباه برقة لفظها، وتتيمه بحركة لحظها، وترشفه من المنادمة مداماً، تثير فى القلب صبابة وغراماً، حتى هزه الوجد واستخفه الفرح، ولمح الناس منه ومن خليلته ما كانا عليه؛ فتحدثوا فى أمرهما متأسفين على (مارى) زوجة (ڤكتور) توسلاً للوقيعة

فى الباريسية الحسناء، وهذا شأن الناس من قبلهم ومن بعد لا يبذلون الشفقة إلا لتكون حجاباً يستر النية السوداء.

وانصرف والد (ڤكتور) وحموه إلى منزلهم بـ(مرلى) فى أول المنصرفين ولبث هو فى المرقص حتى لم يبق فيه أحد من المدعوين، ثم سار وفى ضميره للحب أسرار، ومذ حينئذٍ وقع فى أحواله الباطنية انقلاب لم يخف عن قلب زوجته وإن كان خافياً عن أعين الناس.

قلوبُ أهل الحب تبصر من أسراره ما لا ترى الأعينُ
تحسبهُ مستتراً خافياً وهو صريحٌ عندها بيِّنٌ

فإنه كان يخرج من المنزل ويعود إليه فى أوقاته المعينة لذلك، ولا ترى منه زوجته غير الحب والائتلاف ولا يجد منه أولاده غير الحنو والانعطاف مع سكينة ظاهرة عليه إذا رآه من لم يعان الصبابة أيقن أنه خلو من الغرام ولم تر عينه ما يتقد فى قلبه من ناره ذات الضرام ولا عجب، فإنها لا تبصر القلوب إلا عيون القلوب. وما كان (ڤكتور) خبيراً بأحوال الهوى بصيراً بأمور الحب ولكنه تلقن العلم بها ليلة المأدبة أو بعدها، فكتم جواه وأخفى هواجس هواه.

وأقامت المركيزة الحسناء فى (سرڤيل) بعد المأدبة ستة أسابيع وأهل الناحية يتحدثون فى أمرها وأمر (ڤكتور) ويكثرون فيهما الأقاويل، ولكن من غير شاهد أو دليل فقد كان المحبان على حذر من الرقباء يكتمان الحب ويظهران خلو القلب كلما التقيا على مرأى من الناس حتى

كأن الذى بينهما معرفة قريبة العهد لا غرام موثق العهد، ولما سارت المركيزة إلى باريس تجلد (ڤكتور) للاعج الأشواق، وغصة الفراق، وزار أهلها في (سرڤيل) ولم يكن على شيءٍ من علائم الاكتئاب ودلائل الاضطراب، ولكنه لم يمضِ على ذلك غير بضعة أيام حتى أعياه التجلد وعناه الصبر فبكر ذات يوم إلى غرفة زوجته وقال لها متلطفاً ما استطاع.

- أروم السفر إلى باريس لمصلحة تقتضيه فهل تأذنين فى ذلك.

- لك الأمر فافعل ماتشاء.

- إذن أسافر غدا أستودعك الله

(٤)

الحبّ أول مايكون مجانة فإذا تمكّن صار شغلا شاغلاَ

بعد الذى مر بنا من حديث، (ڤكتور) و(مارى) تعاقبت عليهما الأيام وتوالت الشهور عامين طويلين، وهو مقيم بباريس يجتنى زهر الصفاء من حدائق الهناء، ويرشف راح الأفراح بكؤوس الانشراح، وهى مقيمة بـ(مرلى) تغالب الغم والكمد وتحاول الصبر والجلد، وتسأل الله المعونة والمدد.

وكان (ڤكتور) قد كتب إلى قومه بعد وصوله إلى باريس يقول إنه عزم على الإقامة بها شهرين لا شهراً واحداً، ليتسنى له رؤية ما اشتملت عليه من الغرائب والعجائب، ثم زعم أنه شديد الرغبة فى طلب العلم قوى

الميل إلى استكشاف أسرار السياسة، وأنه يروم دراسة القوانين ليصير فقيهًا فيتأتى له إلى الوصول إلى مرتبة النيابة، ثم تململ من كونه رجلاً عطلاً لا أثر له ولا فائدة منه أهمل ما آتاه الله من الذكاء ورضى من الحياة بالخمول والكسل، فلم يكن له سؤدد ولا شرف، وجملة قوله أنه طمح إلى المعالى وحدثته نفسه بالمجد، فاختار المقام بباريس؛ لعلمه بأن زوجته صادقة الحب فلن تعارضه فيما يسعى إليه مما يعود بالمجد والفائدة عليها وعليه، وأنهُ سيدرك أمنيته بعد حين فيستقدم (مارى) إليه لتكون شريكة سعده وقسيمة مجده ورفيقة أنسه بلا خوف من الفراق، وغير ذلك من أنواع الخديعة وضروب الحيلة

وما نفذت فى (مارى) خدعة (ڤكتور) واحتياله، ولا انطلى عليها محاله ولكنها صبرت على تجنيه ورضيت بما كان يقضيه، فكانت تكتم الغم وتكظم الغيظ منه، ولا تراسله بما يشف عن القلق واشتغال البال، إلا أنها كتبت إليه مرة تذكره بأن مالهما غير كثير فلا يجوز لهما انفاقه جزافًا وحرمان أولادهما منه ثم ترجوه موالاة الرسائل وأن يقدم إليهم لتراه متى أمكنه من ذلك شغله الشاغل الجديد وهلم جراً مما لا يخرج عن حد التلطف ولا يشعر باختلال الوداد حتى أن (ڤكتور) لما قرأ ذلك الكتاب اغرورقت عيناه بالدمع وأوشك أن يعود إلى بلده، لولا، أن جذبته على رغمه جاذبة الهوى، فأقام لدى (أليس) ينشد فى حبها بلسان الحال قول من قال

أَقَمْتُ كما شاءتْ وشاء غرامُها لها الذنبُ لا تُجزى به ولى العُذرُ

وفارقْتُ أهلى فى هواها وإننى وإياهم لولا الهوى الماءُ والخمرُ

وكان حب الباريسية الحسناء قد سرى فى نفس (ڤكتور) سرى النار بالضرم، فكان يزورها ما شاء الحب والشوق لا يخاف عنولاً ولا يخشى رقيباً (بما اعتاده كبراءُ الفرنج مما يسمونه بالحرية أو بسلامة النية وهو بغير ذلك أشبه)، فدخل عليها فى خدْرِها ذات يوم فى الساعة الثانية بعد الظهر، ولم يكن هو ذلك الفلاح الساذج المتهيب الأجنبى عن بهارج الزينة وأحوال الاجتماع كما رأيناه من قبل، ولكنه كان غيسانيا مترفًا منعمًا لبيبًا مليح الشباب، كامل معانى الحسن، شائق الرواء، رشيق الحركة بلا كلفة ولا اكتساب، وممن يأخذون بالأسباب ويعظمون فى أنفس الناظرين ما لم يكونوا لهم من الحاسدين:

يزيدُك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرا

فتلقته المركيزة بابتسامة لها فى ثغور الحسان معان يفهمها المحبون، وظهرت منها عليها سيماء الإعجاب به والحب له، فمدت إليه يدها البيضاء فقبلها باحتشام، ثم أبقاها بين يديه فقالت

- تأخرت عنى يا (ڤكتور) وقد كنت أنتظر قدومك لنتشاور فيما ألبس الليلة لمرقص السفارة، فإنى أريد أن أكون ملكة الحسان فيه.

- ما عليك إلا أن تظهرى فما أحد ينازعك التاج

- لست أطلب منك المدح وإنما أروم المشورة، فماذا تقول فى إكليل من زهر العطر شاهى: (زهر يعرف أيضًا بإبرة الراعى ينظم بين الجواهر وتجعل باقة منه على الصدر فوق ثوب من اللاذ الأزرق).

- هذه غاية الحسن والزينة، فإن العطر شاهى نادر الوجود فى

هذه الأيام، أما الثوب الأزرق فتكونين فيه قمراً في سماءٍ زرقاءٍ عليهِ إكليل من الجواهر والزهر من دونه أكاليل النجوم الزهر.

– أتستحسن ذلك حقيقة ؟

– غاية الاستحسان

– لا أخفي عنك أن هذا الرأى مكتسب، فإن (باتون) الزهار قال لـ (جمدراتى) أن امرأة قد استشارته فيما تتزين به من الزهر، فأشار عليها بالعطر شاهى، ثم لم يجد منه غير شيءٍ قليل فآثرنى به عليها.

– أصاب وراعَى النظير

– وأنت متى تتبعنى إلى السفارة ؟

– بعد زيارة الوزير، فقد علمت أن الأمر على مانريد، وأن النجاح عتيد' وأزيدك أنه قد عزم على عرضى للنيابة متى جاء وقت الانتخاب، فسوف أصير باهتمامك نافعاً للوطن

– آه لو كنت تعلم مقدار إعجابى بمزاياك وما أذكره فى كل يوم من أنك لولاى لكنت باقيا فى بلادك مجهول المكان خامل الذكر، تنمو نمو النبات بلا منفعة ولا أثر مع كونك مخلوقًا لتعظم فى الدنيا آثارك، ويعلو فى الوجود منارك فكلما نظرت إليك الآن وسمعتك متكلماً بأحسن بيان، ورأيت مالَكَ من المزية على الأقران' حمدت الله سبحانه واجب الحمد على أن وجدت فى سبيلك لأرشدك إلى غايات المجد.

– صدقت أيتها الحبيبة المفداة بالروح، فلقد هديتنى سبيل الفلاح، وأنقذتنى من عذاب الضجر، ولولا أن رأيتك لمت غما ويأساً محترقًا

بشعلة الذكاء التى أوقدَتْها فى قلبى السماء، فقد كنت أنوب كل يوم كما يذوب الشمع ولا أدرك لذلك سراً فأهيم من التصور فى أودية آمال يمثلها الخيال وليست بموجودة في واقع الحال حتى استقبحت وجودى واستهجنت من كان لهم فى قلبى مكان من الحب، فصرت منفرداً لا أجد أنيساً ولا ألتمس جليساً إلى أن تجليتِ لى فى مظهر، الجمال فتحولت هانيك الأحوال، فأنا الآن حى بهواك سعيد برضاك لا أرى من محاسن الوجود سواك، أغمض الطرف حين لا أكون لديك، ولا ترى عيناى عينيك لأعود بالفكر إلى الأيام السالفة، فأذكر ملتقانا الأول إذ رأيتك فى كنيسة منزلنا بين البروق اللامعة، فخلتك ملكًا على سحابة تنبعث منها أشعة النور، ثم أذكر موقفنا على الآثار والأطلال، ورجوعنا من الغد إلى عين التلاقى، حيث اتحد منا القلبان، وامتزج الروحان' فنطقت أنفسنا بالحب من غير لسان، وأذكر المأدبة التى رأيتك فيها بهجة الأنظار وفتنة الأفكار وأحاديثنا من بعدها فى كل يوم على تلك العين، ونحن من وراء حجاب من الخفاء لا ترانا عين رقيب ولا عين، وإنى ماكنت حيا إلا بقربك ولا موجوداً إلا فى حبك، فكان غيابك عنى غياب الروح عن البدن، فلم يكن بك من حاجة لاستخلافى قبل سفرك أن أسير إلى باريس على أثرك، بل لو نهيتنى عن ذلك لما كنت أنتهى فإنك قد حبَّبْتِ إلىَّ الحياة وأنت هى، وأوضحت ذاتى لذاتى. وهتكتِ سجوف الخفاء عن صفاتى، فكل مالدى من مال وما عساه أن يكون فى من حسن وكمال وما ظهر على من مخايل الذكاء وماترين فىَّ من البهجة والرواء فهو مستمد من محاسنك الغراء. فأذَنى لى أجث بين يديك لأثنى واجب الثناء عليك، قال هذا ورام الترامى على قدميها فأنهضته وهى تقول

– آه ماضٍ الزمان لو سمح بتلاقينا قبل هذه الأيام، ولم يكن بين كل منًا والآخر حاجز مكروه.

– كان ذلك من فوق اليدين يا قرة العين، على أننا قد وجدنا لنحيا معًا مؤتلفين متحدين، ويمين الله لن نفترق مادمنا أحياء.

– لا ريب عندى فى صدق حبك وثبات قلبك، ثم قالت ولسانها يتلجلج وصوتها يتهدج ولست ألم بما فى نفسك من العواطف الأجنبية عنى إلا بلطف واحتراز، ولكنى فى قلق مستمر منها فلا بد أن أسألك هل عندك خبر من (بواتو).

– نعم

– وكيف حال مدام (ديلار) ؟ (تعنى زوجته).

– تزعم أنها الآن أحسن حالاً، ولكنى فى ريب من ذلك، فقد رأيت فى كتبها سرا غريبًا لم أرَ مثله من قبل، فأيقنت أنها تكتم عنى حقيقة الأمر.

– إن كانت منحرفة المزاج فقد وجبت عليك زيارتها لتدفع الظنون، وترى أولادك الذين تحبهم حبًا صادقًا.

– أذكرتنى من ذنبى ماكنت ناسيًا يا (أليس) نعم إنى مخطئ إلى التى لم أرَ منها إلى الآن غير الحب، وإن أولادى أعزاء علىَّ، غير أن هذا الحب وذاك الذنب يخفيان فى مظهر هواك، فإنك تسلينى عن كل موجودٍ، ولا أسلوك بشىءٍ من الوجود، ولقد أفرغت قلبى من كل شىءٍ سوى حبك،

فصار لك الملك فيه بلا شريك.

ملّكتك القلب فرفقـا بـه ... ما أحسن الإحسان ممن ملك

أستغفرُ الله فما أنت من ... هذا الملا إن أنت إلا ملك

وحينئذٍ ضرب ناقوس الباب إشارة إلى قدوم زائر جديد، فانقطع حديث الأليفَيْن، وانصرف (ڤكتور) يسعى فى شأنه وبقيت المركيزة تنتظر قدوم الزائر، ولما عاد (ڤكتور) إلى منزله للعشاء رفع إليه الخادم كتابا من الكونتة (سرزول)، ترجوه فيه أن يأتى منزلها فى الساعة الثالثة بعد الظهر، فإن تأخر عن هذا الميعاد، فلا يزعجن نفسه بالمسير إليها، فإنها لا تكون فى المنزل بعد الساعة الخامسة.

وكانت هذه الكونتة من نساء القصر الملكى قبل الثورة، ولها صداقة قديمة مع والد (ڤكتور)، وكانت كريمة الخلق شريفة عالية النسب معروفة بالفطنة والذكاء، ولها أصدقاء كثيرون فى حى النبلاء المسمى (فوربورسين جرمين)، وكان (ڤكتور) قد أفنى الحيل فى استعطافها إليه فأعرضت عنه بما بها من الحرص على التستر والاحتشام الظاهرى، وما رأت من تهتكه فى حب (أليس)، بل وقفت له ولها بالمرصاد توسعهما عذلا ولومًا وتروم التفريق بينهما رحمة بزوجة (ڤكتور) حتى فرط منها إلى بعض الناس قول يشعر باستعدادها لإصلاح ما أفسد الهوى بين (ڤكتور) و(مارى)، فصار هذا الشأن همها الفرد من ذلك الحين، وكانت صداقتها مع الكونت (ديلار) قديمة أتى عليها نحو خمسين عاما وقيل بل كان بينهما حب لا يفى لفظ الصداقة بمعناه، ثم تحول ذلك الحب،

صداقة بعد أن ارتحل الشباب وأقفر مغناه فكان الكونت يستريح إلى حبيبته القديمة بأسرار ضميره، فلما وقع من (ڤكتور) ماعلمناه كتب إليها يخبرها بسفره وما ألم ببيتهم من الغم وكيف صبرت (مارى) على ذلك صبراً جميلاً، وأعلمته هى بما كان من ابنه فى باريس وأنه بلغ من شدة حبه للمركيزة أن غادر لأجلها طريقة آبائه فى السياسة وانحاز إلى نصراء الوزارة فأضاع شرفه فى سبيل الحب، وكانت الكونتة غاضبة على (ڤكتور) من وجهين الأول أنه تهتك فى الحب، فأضاع أدبه، والثانى أنه اتبع من السياسة مذهباً لا يلائم نسبه، وطالت المراسلة بينهما وبين أبيه فيما يحسن التوسل به إلى رده عن الغواية وإرشاده سبيل الهداية، ثم سارت بنفسها إلى مرلى ولا شك أنها لم تغادر مستقرها الأمين إلا لأمر ذى بال، وكانت بعد رجوعها متحجبة فى منزلها لا تزار إلا فى أوقات معينة ولا تخرج إلا متنكرة مستصحبة فتاة من النساء، تزعم أنها أتت بها من (بواتو) لتكون لها رفيقة، فالتبس أمرها على الناس، فصارت كمن يعد مكيدة لأهل الحكم.

فلما وقف (ڤكتور) على كتابها ساءه فوات الوقت الذى استزارته فيه، وخاف أن نتخذ تأخره عنه حجة جديدة عليه، فإنه كان على ذكائه وحسن بيانه يخاف جدالها فى قضية حبه التى لا تقوم له فيها حجة ولا برهان فكتب إليها يعتذر بما وجد من العذر، ثم أقبل على إصلاح شأنه استعداداً للذهاب إلى المرقص.

ولما جاء الوقت المعين فى أوراق الدعوة تجلت غرف السفارة الإنكليزية بأنواع الزينة المعتادة فى المآدب الكبيرة وتقاطر إليها المدعوون

من كل جانب حتى كـاد الزحـام بمنعهم من الحـركة - ياعجبًا كيـف لا يمنعهم من الفرح والهناء - وكانت المركيزة الحسناء فى المرقص فتنة للناظرين سطعت جواهر حليها من تحت أزهار العطر شاهى، فاستوقفت لها الأبصار، فما تحدث من رآها إلا فى حسن زيها وجمال محياها، ولم تكن أتت المرقص إلا بعد نصف الليل، كما هى عادة الحسان المتصببات (لتنتظر فيعظم الشوق إليها)، فدار بها الناس وهى دائرة النظر على (ڤكتور) حتى لمحته بين الجمع فتقدمت إليه ورأت علائم إعجابه بها بين عينيه، فلمعت لذلك أسرَّتها وتمت به مسرتها.

وعند الساعة الأولى بعد نصف الليل أعلن الحاجب قدوم الكونتة (سرزول) والويكونتة (ديلار)، فالتفت أهل المرقص متعجبين مما سمعوا، فإنهم كانوا يعرفون (ڤكتور ديلار) ولكن لم يكن فيهم من رأى زوجته، بل كان أكثرهم يحسبونه عزيبًا، فلَّما نطق الحاجب باسم تلك الخاتون المنسوبة إليه أخذهم فى أمرها حب الاستطلاع، فداروا بها من كل جانب يرمونها بالانظار ويتداولون فى شأنها الأقاويل والظنون، أما هى فكانت مرافقتها للكونتة كافلة لها بحسن القبول عند السفيرة وسائر خواتين المأدبة ولكنها كانت مع ذلك خائفة كاسفة البال مشردة الفكر لائذة بأذيال رفيقتها، تهيبًا من (ڤكتور) أن تلقاه فيسوءه انقيادها إلى رأى مدام (سرزول) حتى وهن عزمها وكاد الخوف يعجزها عن الوقوف لولا أن شدت الكونتة أزرها، وأزالت من قلبها الرعب، وعللتها بإدراك الأمانى، وأنها ستكون هى المشار إليها بالبنان بين جميع من فى المرقص من الحسان.

وكان زى مدام (ديلار) مماثلاً لزى المركيزة الحسناء على أن ثوبها الأبيض كان أزين، وباقات الأزهار عليه أحسن وجواهر حليها أبهى وأثمن، ولم تكن تلك الجواهر لها وحدها، ولكن أعارتها الكونتة من حلاها الثمينة ماكملت لها به أسباب الزينة، والتمست لها العطر شاهى من منابته ولم تترك لـ (باتون) (بائع الزهر) منه غير القليل، فكان لها منه أكاليل منسوقة موفورة، ولم يكن للمركيزة إلا أزاهر قليلة منثورة، وفى الجملة أن زينة (مارى) كانت أبهى من زينة (أليس) على قرب المماثلة بينهما، وقد اتضح ذلك لمن رأى الاثنين من أهل المرقص، فصح عندهم أن (مارى) إنما عمدت إلى تلك المماثلة لتبين كيف يظهر الفرق بين المتشابهات، فكان ذلك موضوع الأحاديث فى كل حلقات الرقص. ولما اشتد قلب (مارى) قالت لها لويكونتة:

– ينبغى أن ترقصى مع ابن أخى ليراك زوجك ولا تخافى سوء، فإنك منصورة لا محال وما لك من شبه فى هذا الجمال، فامتثلت أمرها ورقصت مع ابن أخيها بين الراقصين ولم تكن منفردة فى الجمال، ولكن كان فى حسنها غضاضة ومائية قلَّ أن توجد فى نساء باريس – لشدة ما يكابدون من عناء السهر وضنك الأثواب – وكانت مع ذلك جديدة، وللجديد عند الناس طلاوة، فإن أكثرهم كالمبتذل الذى أتى عليه وقت طويل، فهو يمل ماكان موجوداً ويلتمس كل يوم حسناً جديداً، أما (ڤكتور) فكان لدى المركيزة فى آخر الغرف لاهياً بمسامرتها عن المرقص والراقصين وكان قد أتى عليه هناك ساعة من الزمن ولم يسمع بحديث زوجته حتى دنا منه أحد أصحابه وقال له:

- ماذا تقول فى مليحة فتانة تنسب إليك وهى بصحبة الكونتة (سرزول) ؟

- وُهِمْتَ يا صاحبى، فليس فى باريس من امرأة تنسب إلىَّ.

- لستُ واهمًا. لسنت واهمًا. فالمرأة تدعى بالويكونتة ديلار وهى الآن ترقص فى الغرفة الأولى، وقد حدَّقت بها الأبصار وافتتنت بها العقول؛ فإنها من آيات الحسن والجمال.

- أعيد إليك القول أنك واهم فيما انصرف خاطرك إليه.

- إنى على هدى وبينة مما أقول، والفتاة بزىٍّ سيدتى - وأشار إلى (أليس) - ألا إن ثوبها أبيض.

- فقالت (أليس): بهذا الزىِّ ؟!

- نعم سيدتى بزيِّك هذا.. أزاهر من العطر شاهى وحلى متألقة الجواهر.

فتساءلت أعين (ڤكتور) و(أليس) عن سر هذا الأمر فقال (ڤكتور):

- لا لا يمكن !

- فقال صاحبه: هلم وانظر بعينك.

فأجاب (ڤكتور) متبسمًا من الغيظ: أنت وما أردت فَسِرْ بنا لنرى.

وانطلقا إلى الغرفة الأولى مخترقين صفوف الراقصين المتزاحمين على رفعة قدرهم تزاحم الغوغاء حتى تجلت لهم الحسناء المقصودة

فتبينها (ڤكتور) فإذا هى (مارى) بعينها، لكنها لم تكن كما عهدها ساذجة فطرية الخلق تخاف الكلام ولا تكاد تحسن تأدية السلام، وإنما كانت بهية فتانة رشيقة الحركات ذات بهجة ورواء، فحار فى أمرها ولم يدر كيف أتت باريس؟ وكيف تحولت أحوالها السابقة ؟ ثم التقى نظره بنظرها، فأوشكت أن يغمى عليها من التهيب والخوف، ولكنها تجلدت، فسكن جأشها، فأتمت الرقص، وحينئذ شعر (ڤكتور) بيدٍ مستهُ فى كتفه، فالتفت، فرأى مدام (سرزول) تبتسم إليه ابتسام الظافر وهى تقول.

– ألا ترى أنى أعددت لك دهشة تجلب السرور، وأنى أتقنت تعليم زوجتك فنون الإتقان، وأحسنت تلقينها أساليب الإحسان. وهل عرفتها بعد تغير أحوالها وظهور جمالها ؟

– لك المنة والفضل فيما تكلفت من تعليمها وتغيير أحوالها ولكن ما ضرً لو أخبرت بالأمر وإن لم أشاور فيه، ألم ترونى لذلك أهلاً ؟

– لا يا حبيبى الويكونت، ولكنى ووالدك قد أضمرنا لك هذه الخدعة المطهرة، والدهشة السارة، ولو أظهرناك عليها من قبل لضاعت بهجتها، وقد أعيتنا زوجتك ترددا وامتناعًا حتى تم لنا إلجاؤها إلى ماتراه اعتقادَ أن يجلب لك السرور.

– لقد كلفتِ نفسكِ ياسيدتى من المبالغة فى الاهتمام.

– لا أجد من كلفة فيما يجلب لك المسرة، فأنت ابن الصديق القديم الذى أتى علىً فى صداقته خمسون عامًا، وماكتبت إليك صباحًا أدعوك

إلى زيارتى قبل المساء، إلا لأن (مارى) أبت أن تأتى المرقص من غير أن تعلمك بذلك، وقد سرنى غيابك عن منزلك وقت الزيارة، فإنى أمنت به ضياع الدهشة وذهاب ما أتوقع لها من حسن التأثير.

ثم تقدم نحو (ڤكتور) صاحبه الذى أخبره الخبر، ولم يكن سمع مادار بينه وبين الكونتة من الحديث فقال

– أرأيت مدام (ديلار) ؟

– نعم وهى زوجتى بعينها وقد أتت باريس هذا المساء ونزلت على الكونتة (سرزول)، فكتمت الكونتة عنى خبرها على سبيل المداعبة والمباغتة بالسرور.

– هنئت بها يا صاحبى فهى آية من آيات البهاء !

– ولست كاتمك أنى من لقائها فى أتم الهناء.

ثم انتهى دور الرقص. فتمشت (مارى) قاصدة زوجها والكونتة وهى تتعثر بأذيال الخوف حتى وقفت تجاه (ڤكتور) ولم ترفع طرفها إليه فقالت لها العجوز:

– لا بأس عليك يا بنية، فإنى قد التزمت العهدة فى كل ما جرى، فلن تسمعى فيه لومًا، ثم إن زوجك يحبك الحب العظيم؛ فلا خوف منه فقال (ڤكتور).

– مرحبًا بك ياسيدتى وإن كنت قد اخترت لنا هذا الملتقى العمومى،

فقبضت (ماری) علی ید زوجها وعلت وجهها حمرة الخجل، فقالت لهما الكونتة:

تخطرا معًا یاولدیّ وأنت یا (ڤكتور) كن معجبًا بامرأتك مسرعًا لإظهارها للناس، فذلك يفيدك خيراً وسأقدمكما إلى بعض ذوى المقامات الذين يحصل منهم النفع.

– فلم يستطع (ڤكتور) مخالفة الكونتة، بل سار بزوجته على أثرها، فطافت بهما على أهل المرقص تعرف بهما أكابر الوجهاء رافعة صوتها ما أمكن رفع الصوت فى ذلك المقام، مخاطبة كل من تقف به بشىءٍ من هذا الكلام، لله ما أحسن هذين العروسين، إنهما سيقيمان بباريس. كان اعتلال مدام (ديلار) هو السبب فى افتراقهما وقد عاودتها العافية فلن يفترقا بعدها. أما أحسنتُ فى الجمع بينهما فى هذا المرقص البهيج؟ أما تَرَوْنَ عليهما لوائح الهناء والسعادة ؟

وكانت (مارى) فى الواقع فرحة مفعمة القلب هناءً وسرورًا، لكن (ڤكتور) كان مبتئسًا مضطرب الذهن، منقبض الصدر، منفعل النفس من كل الوجوه يروم الخروج من موقفه الحرج، ولا يستطيع التخلص من ملازمة الكونتة؛ فإنها لم تكن تغفل عنه طرفة عين، وقد بشرته بأنها لاتنصرف من المرقص فى ذلك اليوم السعيد الذى هو عندها بمنزلة العيد إلا بعد انتهاء الرقص وتفرق المدعوين.

وكانت (أليس) على حالة من القلق لا يعرفها إلا من يعانيها أو يقع

فيما يدانيها، فلم تجرؤ على التحول عن مكانها بل وقفت فيه شاخصة إلى باب الغرفة تنتظر إياب (ڤكتور) انتظار المتهم لقضاء الحاكم حتى مرَّ بها صاحبه الذى أتاه بنبأ زوجته، فابتدرته بالسؤال عنه غير مالكة من نفسها مايليق بها من الجلد قالت

– ماذا جرى على الموسيو (ديلار) ؟

– تركته سعيداً فرحًا، يمشى على الأرض مرحًا، ووددت لو رأيته وزوجته يتخطران بين الراقصين والكونتة تحول إليهما الأنظار.

– أتركته مع زوجته ؟

– نعم. نعم وهى لَعَمْرِ أَبِى فتانة حسناء يأخذ حسنها بالألباب. أفما عرفتها ياسيدتى؟

– عرفتها.. رأيتها فى (بواتو) فلاحة عسراء بلهاء.

– لست أدرى إن كانت بلهاء، ولكنى أقول عن يقين إنها ليست فلاحة ولا عسراء

– وهل هما الآن معًا ؟

– على أحسن حال من المسرة والهناء، يُنظر إليهما بالأعين ويُشار بالبنان.

فأوشكت المركيزة أن يُغمى عليها من هذا القول غَيْرة وقلقًا بما خطر لها من الخواطر، وما داخلها من الظنون، وحدثتها النفس بداءة بدء

أن تناظر ضـرتهـا علنًا بشـاهد الحسن ودليل الجمـال، ثم خـامـر قلبهـا الخوف من حيث لم تدر وكانت هذه أول مرة خافت بها مناظرة الحسان، فرأت أن الفرار أوقى لها من الثبات، وأحفظ لكرامتها عند ذوى المقامات فعوّلت على الانصراف وقالت للفتى صاحب (ڤكتور).

– أرجوك أن تدعو إلىّ الموسيو (ڤلمورين) من هذه الغرفة «وأشارت إلى مكانه»، فقد دعانى إلى الانصراف ثلاثًا ولا أحب أن أكلفه الرابعة

فامتثل الفتى وأبلغ إلى المركيز (ڤلمورين) مقالة زوجته، فسارع إليها ملبيًا مطيعًا، وكانت هى قد أيقنت بتعذر انتصارها فى ساحة المناظرة، فرضيت بالتقهقر من غير انكسار للنجاة من غير فرار، فعقدت يدها على ساعد زوجها وتمشت وإياه فى غرف القصر متخطرة مختالة دلالاً وعجبًا تبتسم لكل من، تراه وتتيم كل من تلقاه، حتى أجمع أهل المرقص رجالاً ونساء على أنها لم تر من قبل أجمل منها فى تلك الليلة، وأحسن، ثم لمحت الكونتة ومارى ومعهما الموسيو (ديلار) عند المائدة، فأومأت إليهم بالسلامة ولم تجرؤ على الدنو منهم خشية أن يخونها الجلد، فانطلقت بزوجها مسرعة هارعة حتى أتت موقف العربة، فانطرحت فى زاويتها كاسفة البال واهنة العزم ونظرت الكونتة إليها وهى منصرفة على تلك الحال فأخذتها الشفقة عليها فقالت بنفسها

– أسفًا عليها. إن عذابها لأليم، ولقد فعلت فعل كرام النفوس، فهى جديرة بأن يرق لها لولا أنها على الباطل، وأن الحق بالنصر أحق

ثم التفتت تطلب (ڤكتور) فلم تجده، فسألت عنه (مارى)، فلم تعلم كيف غاب، فساءها ذلك ولكنها لم تكن ممن يقفون فى السبيل قبل إدراك الغاية، فأخفت ما نالها من القلق والاضطراب، وعادت إلى الطواف حول الراقصين فى الغرف، ثم حملت (مارى) على الرقص حتى كلت وأعيت، فلجَّت بطلب الانصراف، فأمرت الكونتة بتقديم عربتها وأجلست الفتاة، ثم أمرت السائق بتوجيه الخيل إلى بيت (ڤكتور) فصاحت (مارى)

– رحماك يا سيدتى كيف نسير إلى منزله ؟!

– وإلى أى منزل غيره تسيرين ! أيحسن بزوجة الموسيو (ديلار) أن يعرف أنها فى باريس ولا تكون فى منزل الموسيو (ديلار).

– وما الرأى إن طردنى من بيته ؟

– إن حملهُ الحقد والطيش على الإعراض عنك فما عليك إلا أن تتركيه وشأنه حتى يجىء أولادك غداً، فيشتد بوجودهم أزرك، وتغلب حجتك، أما طردك من البيت فاعلمى أنه لا يتجرأ عليه.

– لستُ بجاسرة على دخول منزله. كيف كان الأمر ؟

– إنى أرافقك إليه وأضمن لك البقاء فيه.

– توكَّلنا على الله...

ولما بلغتا منزل (ڤكتور) استوقفت الكونتة العربة، وأرسلت السائق بين يديها مخبراً، ثم اقتادت (مارى) من يدها إلى الدرج، فرأتها ترتعد وجلاً، فقالت لها:

– تجلدى. لا بـأس عليك. أَتَرْضـين أن تكون العـجـوز أقـوى منك ؟ وأن تستعينى بها على السير؟

ثم وصل سائق العربة وقرع باب الدار، فخرج إليه الخادم والنوم ملء عينيه، ولما رآه ومن ورائه الكونتة و(مارى) عجب من قدومهم إلى دار سيده فى مثل تلك الساعة من الليل، فقالت له الكونتة،

– هذه الويكونتة (ديلار) فبشِّرْ زوجها بقدومها.

– إن سيدى غائب لم يعد بعد.

– إذن ننتظره

فسار الخادم بين يديهما بالمصباح إلى مجلس الدار، فلما أوصلهما قالت له الكونتة إن الموسيو (ديلار) لم يكن متوقعًا وفود السيدة عليه فى هذه الليلة، وإنما هى دهشـة مـضـمـرة له، فـلا شك أنكم لم تسـتـعـدوا لاستقبالها الآن فانحنى الخادم تصديقا على هذا المقال وانصرف لإعداد ما تحتاج إليه سيدته من أسباب الراحة. فقالت (مارى) مغمغمة:

– ماذا عساه أن يقول ؟

ثم نظرت إلى ما حولها من الآنية المستظرفة، والتحف الثمينة المزخرفة، فدلتها الفطرة الأنثوية على أنها تذاكر أو هدايا نسائية، فقالت.

– ماهذا الإسراف والتبذير ؟ وكم فيما أراه من أثر لغيرى ؟

– عليك بالتجلد يابنية. فـأنت هاهنا صـاحـبـة الحق الجلى، فـلا تجزعى إن الله ولى أمرك، وأخيار الناس أنصارك.

وبقـيـتـا بـعـد ذلك صـامـتـتـين نحـو نصف سـاعـة والكونتـة على شيخوختـها لا تظهر شيئًا من علائم الكلال والتعب غير أنها كانت تهز كتفيها من حين إلى حين تململاً من الانتظار. ثم أحست بحركة عربة وقفت فى الطريق وضرب بعد وقوفها جرس المنزل، ففتح الباب، فقرع أذنها صوت (ڤكتور)، وسمعت الخادم يخبره بقدوم زوجته، ثم رأته مقبلا على المجلس، فنهضت إليه و(مارى) لا تستطيع نهوضًا، فلما وصل قالت له العجوز.

– هذه زوجتك يا حبيبى الويكونت صحبتها إلى منزلك' لأسلمها إليك تسليم الأمانات، ثم أمضى فاستريح، وبسطت إليه يدها للوداع وهى تقول واعلم أنى خدمتك خدمة من طبٍّ لمن حب، ولسوف تذكرنى فتشكرنى.

ثم عانقت (مارى) وهى فاقدة الرشد خوفًا وانزعاجا، وخرجت فتبعها (ڤكتور) محاولاً إخفاء غيظه بمراسم التوديع ومواجب الإكرام فى التشييع، ثم عاد إلى زوجته، فوقف أمامها صامتًا شاخصًا إليها برهة من الزمان، ثم خاطبها والغيظ يكاد يخنقه فقال

– ايهٍ سيدتى. هوذا أنت عندى. وقد جئت غير مدعوة ولا منتظرة ولم تبالى أكنت قادراً على قبولك أم غير مستعد له، فجعلتنى فى موقف حرج أوشك أن أكون به سخرية لأهل باريس. لا جرم قد أفرطت مدام (سرزول) فى الاعتماد على شيخوختها وسطوة والدى فيما اختارت لنا من الحيرة والارتباك، فإنى أعرف من طباعك وأحوالك مايحملنى على

الجزم بأنك لم تحضرى المرقص مختارة، وإنما أكرهت على المسير إليه، ولولا اختراعى لذاتى لما ملكت من نفسى الصبر وكنت الآن.. لا أدرى.. أى شىءٍ.

– مهلاً (ڤكتور) مهلاً ارعنى السمع ولا تلم الكونتة ولا والدك ولا تسئ بى الظن قبل استماع ما أقول. إنى أجهل شأنك فى هذا البلد ولا أعلم لما حرمتنى من لقائك، ولكنى لا أجهل الغاية التى تسعى إليها والأمنية التى تروم الحصول عليها، فأنت تلتمس العلاء والمجد والثروة والعز، وتطمع أن يصيبك الانتخاب، وتكون من النواب، فيتسع لديك المجال، فتبلغ نهاية الآمال. وأنت فى كل ذلك محتاج إلى الصيانة مفتقراً إلى ما يدرأ عنك الشبهات، فلن تصير شيئًا مذكوراً حتى تكون مصون الظاهر وقوراً. وإنى لو استطعت إطلاقك مما يقيدنا معًا لما ترددت فيه، ولكن الأمر من فوق مانريد، فإن لنا أولاداً أعزاء وأنت لهم لا لنفسك، ولا بأس مع ذلك عليك، بل كن كما شئت، وافعل ما أردت، ولا تبالى بوجودى فى منزلك فإنى أكون فيه، بمنزلة الصديقة الرفيقة أو بمكان الأخت الشقيقة أو غير ذلك مما تختار ماعدا منزلة الزوجة، فترانى متى شئت أن ترانى، وأسليك من غمك إذا رأيتنى لتسليتك أهلاً، ثم تفعل ما أردت، وتذهب أيان قصدت وتكون ولى أمرك وأمورنا جميعًا، لا تعارض، ولا يعترض عليك، ولعلك تستريح فى أوقات الفراغ لمداعبة أطفالنا، فتتكشف عنك الهموم، فأولئك الأطفال ما برحوا أعزاء عليك لا محال، ويكون المشهود والمشهور

من أمرك عند الناس أنك محصن فى أهلك مصون، فتندفع الشبهات عنك وتنقطع الظنون، ثم لا يلزمك الاهتمام بتدبير المنزل وتخف عنك مؤونة النظر فى صغائر الأمور، أما أنا فلا أطالبك بشيءٍ ولا أدعى لنفسى عليك حقًا، وسأحفظ لك هذا العهد وإن كان عنيفا عسيرًا، وحسبى من السعادة رضاك، ومن الهناء أن أراك.

أراكَ فيمتلى قلبى سرورا وأخشى أن تشطَّ بك الديارُ
فجُرْ واهجرْ وصدّ ولا تَصِلْنى رضيتُ بأن تجور وأنت جارُ

فعظم تأثير هذا الكلام فى نفس (ڤكتور) حتى تغير لونه، وانقلب غيظه رقة، وصار غضبه حلمًا، فانعطف إلى زوجته خافضًا رأسه بين يديها متنصلاً بلسان الحال من ذنبه إليها، ثم قبض على يدها مرتعداً وقبلها مترضيًا متوددًا، فسقطت عليها من عينه دمعة الندامة فكفته (مارى) عن ذلك بألطف إشارة وقالت .

– لا يليق بنا الاسترسال إلى الشفقة أيها الحبيب، فنحن إلى الجلد والثبات أحوج، فلتستعن بهما أنت على السعى فى شأنك وأنا على حفظ ما عاهدتك عليه. وقد مسنى الآن التعب فأرشدنى إلى الغرفة المعدة لى. وغداة غدٍ يصل أولادنا الأعزاءُ... آه لو علمت مقدار شوقى إليهم.

– من أىّ وقت فارقتهم.

– من شـهـرين. فإن مـدام (سـرزول) رامت أن تعـوّدنى عـادت أهل باريس وتعلمنى مـخـالفـة الناس حـتى لا أوجب لك الخـجل فـأتت بى من (بواتو) بأمر أبيك منذ شـهرين وبقيت عندها متنكرة عنك إلى اليوم.

– حـاشـا لحسنك أن يورثنى الخـجل، فـهـو جدير بأن يبعثنى على العجب والافتخار، فإنك أجمل من رأيت تحت السماء، ولكم ذكرت بعد فراقنا أيام اللقاء وعانيت من البعد صنوف العناء وندمت، فلم ينفع الندم بعد إذ قضى الأمر وجف القلم.

– خفِّض عليك جعلتُ فداك، فغاية السعادة لى أن أراك سعيداً، ومنتهى الشقاء أن تكون بعيداً، واكفف الآن عن الكلام غير مأمور، فسنعود إليه غداً أو بعده متى شئت، فقد أخذنى التعب، واستولى علىّ النعاس.

فسار بها إلى باب غرفتها، فلما خلت بنفسها سجدت تصلى وتدعو الله، والصلاة عون على البأســاء فى شـدائد الحياة ولا حـول للإنسان ولا قوة إلا بالله.

ولما كان الصباح قدم الأولاد، فتلقاهم (ڤكتور) كما يلتقى الآيس نعمة منزّلة من السماء، فعانقهم ملياً وقبلهم كثيراً أما (مارى) فكانت تحمد الله علىَ جمع الشمل وتحقيق الرجاء ولا تطلب فى الهناء مزيداً، مخافة النقصان. وقد أُنسى الاثنان ما مضى وأتم الله عليهما نعمة

الرضى، فجلسا يتجاذبان أطراف الحديث من قديم، وحديث، وبينما هما على هذه الحال الراضية، دخل الخادم ودفع إلى (ڤكتور) كتاباً مزخرف الغلاف منسوق العنوان، فلم يخفَ على (مارى) أمر هذا الكتاب فنهضت وهى تقول لـ (ڤكتور)

– إنى منصرفة عنك لإعداد مكان ملائم لى وللأولاد، وقد ظهر لى أن هذا المنزل على صغره يفى بحاجتنا إلى أن نجد مكاناً أوسع منه ثم ودعته وخرجت، فلما صارت بحيث لا يراها مسحت من عينها دمعة كادت تحرقها. ولبث (ڤكتور) كاسف البال، مضطرب النفس، يرى نفسه أشقى أهل الأرض لحصوله بين أليفتين مخالصتين متساويتين فى محبته لا يستطيع مقاطعة أولاهما؛ لأنها زوجته وأم ولده وشريكته فى اسمه ولا يقوى على هجر الثانية؛ لأنه واثقها على الحب والوفاء فبذلت له نفسها متعرضة فى سبيل حبه للعذل واللوم وضياع الحرمة عند زوجها وآلها وسائر الناس، فهو بين قوتين جاذبتين يقاسى عذاب الخوف وملامة السريرة وكان قد أفنى الحيل طلبا لرؤية (أليس) بعد انصرافها من المرقص، فأعياه ذلك فتردد فى فض كتابها مخافة العتاب أو حذر العلم بما تعانيه من العذاب، ثم غلب عليه حب الاستطلاع ففتح الكتاب فلم يجد فيه شيئًا مما ظن وخاف، وإنما كان مضمونه أنها تبينت ما تحتم عليه من حكم الضرورة فهى صابرة متجلدة لا تشكو ولا تلوم، وإنما تسأله أن يزورها لتسمع من لسانه حكاية الحال، وإن كان الزمان قضى

عليها بفراقهِ فلا أقل من أن يتولى بنفسه تسليتها فى هذا المصاب، فهى تنتظر قدومه إليها صابرة ما أمكن الصبر.

فاستثاره هذا الكلام وجداً، واستفزه غراماً وشوقاً، فطار إلى منزل الحبيبة خافق القلب منزعج النفس، مشغول الفكر بما نالها من الغم، فرآها منفردة فى خِدْرها منهوكة القوة صفراء اللون غَيرة وجزعاً، فبسطت إليه عند دخوله ذراعيها، ثم أغمى من الوجد عليها فابتدرها برش الماء، وفتح النوافذ لتجديد الهواء، فلما أفاقت رأته جاثياً لديها يقبل يديها ويقول لا تجزعى لا تجزعى.

فإذا تألفت القلوبُ على الهوى   فالناس تضربُ فى حديد بارد

ولقد جمعت بيننا المودة فلن نفترق ما دام فينا بقية من الحياة.

ألفت بيننا المودة حتى   حللتنا والزهر بالأوراق

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـ   ـد جميعا فى الحب ضم النطاق

فى جبين الزمان منك ومنى   غرة كوكبية الائتلاق

كلما كرت الليالى علينا   شق منا الوفاء جيب الشقاق

ولما عاد إلى منزله وجد ابنه يلعب فى بيت المائدة، فنظر إلى وجهه الأبيض الغض من تحت شعره الأشقر الجعدى، فطابت بذلك نفسه، وانشرح له صدره، فعلم أن الحب الوالدى هو اللذة المستقبلة التى ستسليه عما عساه أن يفقد من سائر اللذات، فخاطب الصغير بقوله .

- أين أمك يا (أوجين) ؟

- أمي.. أعدت لنا عند الصباح غرفة بجوار مخدعها لنكون فيها منفردين عنك، فلا ترانا إلا إذا شئت، ولا نزعجك متى كنت مشغولاً.

فقال (ڤكتور) في نفسه . ما برحت هي إياها. خلق كريم، ونفس شريفة، وفؤاد سليم، وأنا أقابل هذا الوفاء والإحسان بالخيانة والكفران. ولما شعرت (ماري) بقدوم زوجها أقبلت نحوه مرحبة به باسمة له وهي تقول

- رأيت الآن مدام (سرزول) فذكرت لها كل ما أبديت لي من الملاطفة والمجاملة، فسرها ذلك أيما سرور وهي تروم أن أسير معها لزيارة بعض الوجهاء وتزعم أن في ذلك مصلحة لك، فإن كنت ترى هذا الرأي فإنا نزور أولاً مدام (درميلي) ومدام (ڤلمورين) اللتين عرفناهما في (بواتو) من قبل.

ولما نطقت (ماري) باسم الباريسية الحسناء تهدج صوتها وارتعشت أعضاؤها بما نالها من انفعال النفس، ولكنها تمالكت وتجلدت ما استطاعت حتى كاد قلب (ڤكتور) ينفطر شفقة عليها وحتى صغرت عنده نفسه بما وجد بها من كرم النفس، فضمها إلى صدره باكيًا وهو يقول .

- عفواً. عفواً. إن ذنبي كان كبيراً، فلست بالحب منك جديراً.

- دع عنك هذا الكلام فلا عتب ولا ملام إني زوجتك الأمينة وأبى الله أن تألف نفسي الحقد والضغينة، بل حسبي من السعادة أن أراك، وأفوز بدوام قربك ورضاك.

فلأنتَ من دون البرية موئلى ولأنت من دون الأنام عتادى
فإذا دنوت فتلك غايةُ مقصدى وإذا رضيت فذاك كل مُرادى

فعلم (ڤكتور) بعد هذا المقال أن عفو زوجته واسع لاحدً له، وعلمت هى أن فى قلبه بقية من محبتها، فأمسى قليل الوجل وباتت كثيرة الأمل

ثم أتمت ما استأذنته فيه فزارت (أليس) ولم تجدها، فأبقت لها تذكرة الزيارة، فانفتح بذلك باب التزاور والتلاقى بينهما، فنجا (ڤكتور) من ضنك الارتباك.

(٦)

هى الدنيا تقول بملء فيها حذارِ حذارِ من بطشى وفتكى
فلا يغرركُم منى ابتسام فقولى مضحكٌ والفعلُ مُبكِ

وتعاقبت الأيام على هذه الحال ستة أشهر طوال و(مارى) صابرة صبر كرام النفوس، لاتخلف وعدا ولا تنكث عهداً، ولا تألو فى إخفاء عذابها جهداً، و(ڤكتور) يرى منها ذلك الصبر الجميل والتأسى العجيب، فيرق لها فؤاده بما فيه من رقة الحب.

من ملك الحبَّ رقة كساه لطفًا ورقَّه
فمن غدا مسترقًا فقل هواه استرقه
ومن رأيت حليقًا فالحبُّ تممَ خلْقَه

وكان يترضاها بالإقبال عليها والانعطاف إليها، فلا تراه إلا مهتما بشأنها، مسارعًا إلى قضاء ما تريد، يتحفها بالهدايا والتقادم النفيسة على الولاء، وينفحها بما تشتهيه نفسها من غير سؤالٍ، ولا يعارضها فى شىء من أمور المنزل، فتقول له كلما أتاها بهدية غالية أو ثوب جديد

- أكثرتَ من هذه الهدايا. أكثرت جداً فلا تبذر من أجلى المال، فأنت محتاج إليه.

- إنما أنُفقُ من حبـاءِ الوالد منذ قدومك باريس، فإنه يرسل مايلزمنا من المال' رغبة في مرضاتك، وتوفيراً لأسباب راحتك، ويأمرنى أن أبذله فى سبيل إسعادك من غير حساب، ولو استطعت لألقيت تحت أقدامك ذهب الأرض فى الطول والعرض

ولم يكن هذا القول شافيًا لعلة (مارى) ولا ذاك المال المبذول كافيا فى إزالة مابنفسها من ألم الغيرة فالمال عرض أحقر من أن يكون للصادق فى حبه غرضاً، والحب مقام أرفع من أن تصل إليه يد المتطاول بالمال. غير أن (مارى) لم تكن أشقى من الباريسية الحسناء بالاً، ولا أسوأ حالاً، فإن الألم الذى يمكن إعلانه بلا خجل ولا خوف من اللوم يخف على النفس وإن كان شديداً، ومن علم أنه على الحق هان عليه التأسى فيما يعانيه من العذاب.

وكانت (أليس) شديدة الغيرة لا تستطيع الصبر على قرب، (ڤكتور) من زوجته مع معرفتها بمكان (مارى) من صفاء النية والطهر ولا تجد

من سبيل إلى الراحة مع علمها بازدياد حب (ڤكتور) لها واشتداد هواه، وكانت مع ذلك رقيقة الطبع، سريعة الحس، كريمة النفس، فكان يؤلمها أن تكون مضطرة لغض الطرف، وخفض الرأس كلما رأت زوجة (ڤكتور).

ومما زادها ألمًا وعذابًا وشقاءَ بالٍ أن زوجها المركيز (ڤلمورين) تنبه من رقدة غفلته، فأساء بها الظن وداخلته الغيرة عليها وكان السبب فى ذلك أنها رأت (ڤكتور) يؤانس (مارى) فى محفل قوم من الوجهاء، فخانها الجلد وظهرت عليها الغَيرة حتى تنبه لشأنها كل من كان فى المحفل واتصل الخبر بحمويها فنقلاه لابنهما، بغية أن يحفظ حويته، ويصون حرمته، فأقام على (أليس) العيون والأرصاد، ووقف لها بالمرصاد يراقبها نهاراً وليلاً، ولا يغفل عنها طرفة عين وإن رأى غير شىءٍ ظنه رجلاً وهذا شأن المغفلين إذا وقعت فى الأمر شبهة، تولاهم فيه الطيش والعناد وجاوزوا الحد فى التوقى منه محتكمين بما يصوره الوهم خائفين الخديعة من حيث لا تخاف حتى يعنتوا من وقع منه ذلك الأمر بالمراقبة من غير موجب والرصد لغير علة.

ومع ذلك لم يمنع المركيز (ڤكتور) من دخول بيته، ولكنه أوجب على زوجته ألاَّ تقبل منه الزيارة إلا ندراً، فكانت تلقاه ويلقاها حيث لا يشعر بهما رقيب ولا تراهما عين، وأقاما على هذه الحالة راضيَيْن بها غير مباليين بالمشقة، حتى أحسا أن أرصاد المركيز يتبعون زوجته أيان

سارت، فاعتراهما الوجل، فعاد إلى التوقي والاحتراز، وكان (ڤكتور) قد اتخذ فى شارع «فوبورسنت اونورى» داراً كبيرة ذات قسمين، لكل قسم مدخل برأسه وبينهما باب لا يفتح إلا من جهة واحدة، فاختار لنفسه القسم الذى يفتح من جهته الباب، وجعل زوجته فى الآخر مشترطاً عليها ألا تدخل قسمه بالمرة، فلم تكن تلقاه إلا على المائدة فى أوقات الأكل، وكانت المركيزة الحسناء تزوره فى ذلك المنزل كلما سنحت لها فرصة وغفلت عنها أعين الرقباء.

فأتته صباح يوم بلا وعد ولا خبر مضطربة راجفة لا تكاد تثبت على قدميها، وألقت بنفسها على المقعد وهى فاقدة الرشد فصاح (ڤكتور)

– جُعلت فداك ماذا اعتراك ؟

– قد أسودّت الحياة فى عينى، وصار الموت غاية ما أريد

كفى بي داء أن أرى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن تكون أمانيا

– واحيرتاه. ما الذى حلَّ بنا؟!

– نكثت عهدى وسلوت عنى.

حتى محظى لديك حرمان ... وكم كدا لوعة وهجران
أين ليال مضت ونحن بها ... أحبةٌ فى الهوى وحيران
وأين ودٌ عهدت صحته ... وأين عهدُ وأين إيمان

ألم تر كيف كنت بالأمس تهتم بشأن زوجتك عند الكونتة (سرزول) وكيف كانت هذه العجوز الماكرة تنبه الناس لذلك إجهارًا على فؤادى الجريح بسهم الغيرة. بلى، رأيت ذلك وكانت زوجتك حسناء تعلن دعوى الصبر وتظهر علائم الطهر حتى جدت فى أعين الناظرين، وصارت هى المشار إليها بالبنان فى ذلك المحفل فعاودك ما عهدته بك من حب الذات والعجب والزهو، فملت إليها، وأقبلت عليها تروم إعلان سعدك وإبداء مجدك لكل من يراك.

- وُهمت يا راحة الروح، فقد كنتُ يومئذ لا أكاد أنظر إلى (مارى)

- لا يفيد البيان بعد العيان، فقد ظهر غدرك الذى تنكره لمئتى نفس فى ذلك المحفل، وكانت مدام (سرزول) تلك التى نسيت عهد الصبا بعد بلوغها الخامسة والسبعين تبذل الجهد فى تنبيه فكرتى لذلك الغدر.

- أضعْتِ رشدك يا قرة العين، فإن مدام (سرزول) قد أمسكت عن التداخل فى أمورنا.

- مالت إلىَّ الراحة؛ لتهنأ بما جلبت علىَّ من العناء.

- (أليس) (أليس) ما هذا الكلام ؟

هل تعلمين وراء الحبِّ منزلةً   تدنى إليك إذا ما الحبُّ أقصانى

- لا لوم علىَّ وإن فاتنى الجلد، فإنى أصرف الأيام فى قتال أعدائى وأعدائك، لا أعبأ بانخفاض شأنى وضياع قدرى، ولا أبالى بعاقبة أمرى

ولا أروم إلا بقاء ودادك وصفاء فؤادك، ثم لا ألقاك إلا خلسًا، يغفل عنها الرقباء، وأنت مع ذلك تهجرني، لامرأة تخالها من الملائكة لمجرد أنها تَذَرْكَ وما تريد، ولو كانت من أهل الحب لظهرت عليها الغيرة، فإن المحب غيور، قل لى ناشدتك الله. ما الذى بذلته فى حبك ؟ وأى دليل أقامت عليه ؟ تزوجتها فقيرة وأنت غنى، ولها الآن أولاد ملاح تأمل أن تجذبك إليها بمغنيط حبهم، وهى مكرمة طيبة الذكر عند كل الناس، واللؤماء يرقون لها ليسلقونى بعد ذلك بألسنة حداد وهى مع ذلك تراك فى أوقات معلومة ولا تخاف شيئًا ولا تحذر أحدًا فأنا أحق منها بالشفقة وأجدر برحمة الناس

– ما أردت أن أقطع الحديث عليك يا منية القلب، لأن اضطرابك شديد لا يؤمل الآن تسكينه، وقد صدقتِ بما نطقتِ إلا من جهة خفيَتْ عنك الحقيقة فيها، وهى أن (مارى) مع كل ما تتأسى به مما أوضحت فى مقالك ليست أقل عناء وشقاء منك، فإنها تحبنى كما تحبيننى وتغار علىَّ، كما تغارين أنت علىَّ، وهى مع ذلك متجلدة صابرة يمزق الغم فؤادها، ولا أرى منها غير الابتسام، فهل رأيت من يصبر الصبر ويفى هذا الوفاء فى كل حين وعلى كل حالة؟!

ايه ما أحسن هذا القول جئت أطارحك الحب وأشكو إليك ما بى من الوجد، فكان جوابك الثناء على ضرتى فلا كان اليوم الذى عرفتك فيه.

– مهلاً (أليس) لا تسخطى على حبنا أو تحل بك الندامة، فالسخط

باب الشقاء. إني أحبك حب الشحيح لماله وأحن إليك حنين الغريب لآله

وحــرمــة عــهــدٍ بيــا بعنهُ لمْ أحلْ

وعقدٍ بأيدِ بيننا ما له حل

لأنت على غيظ النوَى ورِضى الهوى

لدىَ وقلبى ساعةً منك ما يخلو

إذا أنـعـــــمتْ نـعمُ عـلـى بـظـرةٍ

فلا أسعدتْ سُعدى ولا أحملتْ حملُ

واختبريني بما شئت في هواك فما اختياري إلا رضاك ولو شئت مزايلة هذا المقام فراراً من الرقباء واللوام لما باليت بترك الوطن والآل وإطراح الأماني والآمال، وكان ذلك في جنب ما بذلت لي من الحب يسيراً

فـلـو صـــــرفت زمـــــانـى — والـوجـد أسـقــاه صــرفًــا

ولو جـــعلت حــيـــاتي — عليك في الحب وقـــفـــا

ولـــو رأت كـــل يـــوم — عـــيـني من الـهـول صنفـا

واشـــتـــد فـــيك عـــذابى — فـــمت في اليـــوم ألفـــا

لـــم أوف حـــق ودادى — وكـــان حـــقك أوفـى

ولـــم يـــكـــن كـــل ذا فـــى — ســـفــر المحبـــة حــرفــا

فـــدتْك نـفسُ مـــحـبٍّ — بالحب يشـــقى ويشـــفى

- يا للسعادة يا للفرح. أتقول أتنطق صدقًا!؟

- متى شئتِ أقمت على القول دليل الفعل.

- شرحت صدرى وأذهبتَ عنى الغمَّ.

- أسألكِ فى مقابلة ذلك نعمةً واحدةً

- قل ما تريد، فإنى لا أخالف لك أمرًا.

- لا تظلمى (مارى) ولا تكونى فى ريب من كمال فضيلتها وكرم خلقها.

- أمنتُ، وصدقْتَ.

- ثم لا تسمعى فيها قول الأعداء، ولا تثقى إلا بما أقوله أنا.

- السمع والطاعة.

- فجثا (ڤكتور) لديها خاضعًا خضوع الحب، فأمَّرت يدها البيضاء بين عقد شعره الأسود وهى بين الغم والابتسام، فجعل ينظر إليها نظر الواله ثملاً بخمر السعادة والحب، وبينا هما على هذه الحالة فتح باب السر فجأة، ودخلت عليهما (مارى) صفراء راجفة خوفًا فوقفت بالقرب منهما إلى جانب المركيزة الحسناء ولم تنطق ببنت شفة فقال لها (ڤكتور) منتهرًا

- ماذا تريدين ؟

- ستعلم ذلك عمًّا قليل، أما الآن فانشدكما الله ألا ما تجلدتما وأخفيتما هذا الاضطراب، فالرقيب قريب.

وما كادت تفرغ من هذا الكلام حتى سمعوا من وراء الباب ضجة وصوت رجل يروم الدخول ويمنعه الخادم عنه، فيقول مجهراً

- أقول لك إنه ههنا ولا بد لى من الدخول.

فصاحت المركيزة : ويلاه ويلاه هذا صوت زوجى. فقالت لها (مارى) بصوت المحسن المترفع :

- لا بأس عليك يا سيدتى. فإنى أضمن لك السلامة وما عليك إلا إظهار الجلد وإخفاء علائم الخوف.

ثم تقدمت نحو الباب ففتحته ورأت المركيز (ڤلمورين)، فقالت :

- أهلاً ومرحباً. تفضل بالدخول فهو محظور ولكن على غيرك، وقد جعلنا غرفة زوجى ديوان تفصيل وأزياء وما نحرمك دخول هذا الديوان.

- فرجع المركيز على عقبيه وتغمغم معتذراً بما تيسر من القول، فبدت له زوجته من وراء (مارى) وبدرته بقولها :

- نعم لا بد من دخولك، فنحن فى حاجة إلى رأيك، قد كنا نروم إدهاشك، فأتيت ولم يبق من سبيل لإخفاء الأمر عنك.

وقال (ڤكتور) مثل هذا القول تأكيداً له وإلحاحا على المركيز بالدخول، ثم قالت (مارى) :

- وموضوع نظرنا يا سيدى اختيار زى لملبسنا فى مرقص الدوكة، فقد عنَّ لى ولمدام (ڤلمورين) أن نكون فى ذلك المرقص بزى غريب تحار

فيه الألباب، فأتينا غرفة (ڤكتور) نشاوره فى الأمر، ولانكتمك أنه لم يحسن استقبالنا؛ لأنه كان منقطعا إلى شغله، وكان قد أمر الخادم ألاّ يأذن لأحد فى الدخول عليه

- إذن كان مجىء المركيزة بقصد زيارتك

لا ريب فى ذلك وقد واعدتنى بالزيارة أول أمس فى سفارة إيطاليا

- وكيف لم تخبرينى بذلك أيتها العزيزة ؟

- وما الموجب لإخبارك يا سيدى لا جرم صار مثلك مثل الزوج الغيور.

- ما أراد المركيز إلا المفاكهة فهو أرشد من أن تتولاه الغيرة على محصنة مثلك

- صدقت سيدتى فما أردت إلا المزاح.

- فلنعد إذن إلى ماكنا فيه. قلت يا (ڤكتور) إن ثوب الراعية مموها بالبياض يليق بمدام (ڤلمورين) وأنا أرى أن زى راهبة من راهبات باخوس[1] أليق بشعرها وعينيها السوداوين[2]. فماذا يقول المركيز؟

---

(١) باخوس إله الخمر فى أساطير اليونان

(٢) التنكر فى المراقص عادة جارية فى الأقطار الغربية وبعض بلاد الشرق وهو المراد من اختيار الملابس العربية

– إنى بينكم كالأصم بين المتكلمين، فليس عندى مما أنتم به علم ولا خبر ورأى الموسيو (ديلار) أوسع.

– ألم أقل للموسيو (ديلار) إن زوجى لا يفهم شيئا من مسائل الملبس وإنه لا يكاد يحتمل الحديث فيه

– فأنا استأذنكم فى الانصراف بغية ألاَّ أشغلكم بلا طائل وسأتخير لزيارتكم وقتًا أليق بالزيارة

فنهض (ڤكتور) لتوديع المركيز فشيعه إلى الباب، ثم عاد أصفر اللون مضطربًا خوفًا مما عساه أن يقع بعد انصرافه، وكانت (مارى) و(أليس) واقفتين مضطربتين تنظر كل منهما إلى صاحبتها ولاتجسر على افتتاح الكلام، فقال (ڤكتور) وهو يريد صرف ذهنهما عما يخاف.

– قد أسرع المركيز (ڤلمورين) فى الانصراف، فما أشد كراهيته لمسائل الأزياء.

– فقالت (أليس) وصوتها يتهدج. وأنا منصرفة كما انصرف، فلعل سيدتى تروم الخلاء بك لأمر.

– نعم أريد مفاوضة (ڤكتور) ولكن ما عندى لك من الحديث أهم.

– لى أنا....

– نعم أنت. وإن تنازلت للإصغاء إلىّ بضع دقائق علمت ما أريد،

وتبينت لك أهمية ذلك الحديث.

- ها أنا سامعة فتفضلى بالكلام. على أنى لا أفهم .

- عما قليل تفهمين. فأنت تعشقين زوجى وهو يحبك منذ ثلاثة أعوام.

- سيدتى..

- لا تحاولى إخفاء الأمر عنى فقد ظهر لكل أهل باريس.. ولا تزاولى إنكاره فقد احتملت منه عذابًا لا تحتمله الجبال، ومرت بى أيامه وهى أعوام شقاء وعناء.

- (مارى). حبيبتى (مارى). أيليق بشأنك هذا القول. أتريدين أن يكون بينكما نفرة

- لا أريد نفرة ولا عتابًا، فلا تخف أيها العزيز. ولقد التزمت السكوت إلى الآن وكتمت حتى عنك ما كابدته من الألم، ولولا الضرورة المبرمة لما تعديت ذلك الحد وإن كان الموت أهون مما أنا عليه. وأنت ياسيدتى لقد رأيت ما جرى لنا وأنى أنقذتك من التهلكة ولولاى لساء مصيرك، وكانت حياة (ڤكتور) على خطر. أفلا ترين لى بعد ذلك عليك حقا.

- أعترف لك بعظم المنة و..

- لا منة لى بما فعلت وإنما الفضل للكونتة (سرزول). فقد وفدت علىَّ حين دخولك المنزل ولطفت بلين كلامها وحسن بيانها، ما نالنى

بسبب ذلك من الغيظ الحق، ثم تنبهت لنزول المركيز (ڤلمورين) من عربته على باب منزلنا، ففطنت للخطر وحملتنى على الدخول عليكما لإنقاذك وإنقاذ (ڤكتور) من البلية، ولولاها لما خطر ذلك ببالى

– (مارى) خفضى عليك، وترفقى بنفسك، وأجلى هذا الكلام إلى وقت آخر..

– لا ياسيدى قد عزمت على التكلم ولا بد لى منه.. قلت يا سيدتى إنك رأيت وجه الخطر الهائل وعلمت أن أقل البوادر كافية فى تنبيه زوجك لحقيقة الأمر فهل تعلمين ما العاقبة وما المصير؟!

– الفضيحة . وماذا علىَّ إن افتضحت بمن أحب؟!

– إن لم يكن عليك من الفضيحة بأس فوبالها على (ڤكتور)، فإن المركيز كما تعلمين جبار عنيد شرس الخلق لا يغتفر زلة، فإذا شعر بما بينك وبين (ڤكتور) حمله على المبارزة فيُقتل أحدهما لا محالة. فبأى الدمين تجودين؟ أتجسرين على الظهور أمام الله والناس مضرجة بدم زوجك ؟ وهو برىء من كل ذنب، أو بدم زوجى ؟ وهو ذو بيت وعيال وقد بذل فى سبيل حبك ما هان عليه وما عز حتى الشرف الرفيع الغالى

– ويلاه. ما أهول ماتذكرين !

– نعم إنه لهول عظيم لو تتبصرين، ولا أخالك تقدمين عليه أما أنا. أنا الزوجة الشقية، والأم التعيسة البريئة من كل ذنب، فقد كابدت العناء

الشديد والعذاب الأليم، وما شكوت ولا تظلمت ما بقى المصاب منحصراً فىَّ، والخوف مقصوراً علىَّ، أفليس من حقى الآن أن أسألك حفظ الحياة لزوجى وأولادى؟!

– سيدتى تلك حياة أفتديها بروحى.

فتنبه (ڤكتور) للكلام وكان غارقًا فى بحار التفكر والخيال، فنهض متوجهًا نحو الباب، فاستوقفته (مارى) وقالت

– نشدتك الله ألا ما بقيت.

– لا أستطيع البقاء ياسيدتى. فقد جعلتنى فى موقف سخرية واستهزاء فهذه مناقشة لايليق بى سماعها، وقد نهيتك عن فتحها ولم تنتهى فتممى ما ابتدأت إنى مخل لك الجو

– لا لن تذهب. ولا بد أن تسمع إلى النهاية كل ما يوحيه إلىَّ حنوى عليك وسترى منى رقة ولينا ولا تجد سيدتى ما يبعثها على الشكوى، ولعلها ترتاح أيضًا لوجودك الآن معنا فقد حان لأمرنا أن يستقر على حال.

فأومأت (أليس) إيماءة الموافقة والقبول، فجلس (ڤكتور) فقالت إلى (مارى) بصوت ضعيف كصوت المريض فى حالة النزع ·

– وبعد هذا فما الذى تريدين يا سيدتى ؟

– أريد أن تتركى حب (ڤكتور). أريد أن تقينا جميعًا سوء العاقبة فلا تطلبى لقاءه بعد الآن. أريد أن تتحملى ما تحملت أنا إلى الآن من

الصبر والحرمان. ولا أكلفك إلا مافعلت ولا أروم بذلك نصراً ولا افتخاراً، إني أدرى بما أنا صائرة إليه وأعلم أنه من المحال أن يعود لي ما عهدته من محبة (ڤكتور)، فالحب نور لا يوقد إن أُطفيء وزجاجة لا تجبر إن كسرت، فما أتوسل إليك من أجل نفسي ولكن من أجله..

فنهض (ڤكتور) ثانية يريد الخروج، فأرادت زوجته استيقافه فقال .

– (ماري) لقد حمَّلتني ما لا أطيق، فلا أستطيع بل لا أريد أن أسمع فوق ما سمعت . فقالت (أليس)

– دعيه يذهب يا سيدتي، فليس لنا به من حاجة، أما أنا فأعلم أن حالتي توجب عليَّ خفض الرأس لديك، وإن من حقك عليَّ أن أسمع كل ماتقولين، فتكلمي إني سامعة.

فخرج (ڤكتور) فقالت ماري لـ (أليس).

– أرجوك ألا تحسبيني غير مبالية بما تكابدينه من الألم، فإني لست بفظة القلب، وقد عانيت العناء كثيراً، وذقت العذاب طويلاً ومن ذاق عرف ولكن لا بد لي من الكلام، فإنك تعرفين ما كنا عليه من العيش الهنيء قبل تفريقك شملنا، ولا تستطيعين العلم بمقدار ما كنا فيه من السعادة قبل قدومك إلينا

– «أنت» ياسيدتي كنت لا شك سعيدة، أما «هو»؟

– و «هو» كان سعيداً أيضاً فإنه لم يكن يعرف غير ما لديه..

- صدقت، ولكنه كان يتصور غير ما يرى ويتمنى غير ما يصيب. والأمانى التى لا تدرك تقتل صاحبها

- آه آه. لقد سلبتنى (ڤكتورى).

- لا لا. ألف مرة لا لا، إنى لم أسلبك ڤكتورك، فليس (ڤكتور) الذى كان عندك و(ڤكتور) الذى ترينه الآن سواء، فقد كان ذاك فتى جاهلاً لا يعرف شيئًا وليس له خلاق ولا ذكاء وكان فلاحًا تدهشه رؤية امرأة ولا يعرف شيئًا من أحوال دنياه ولا من حالة نفسه، وهذا رجل من أفصح رجال الزمان وممن تناط بهم آمال الأوطان، يُتمثل به فى الرقة وسلامة الذوق، ويُشار إليه بين الظرفاء بالبنان، كذا جعلته مذ عشقته حتى صار حسرة لقلوب مناظريه وحيرة لأعين ناظريه، فهذا وجه حقى عليه وهذا ما أوصله حبى إليه.

الحبَ هذَبهُ وزين خلقهُ ... وَحَلا محاسنه بأبهج رونقٍ
فصفت شمائله ورقَ فؤادهُ ... صفر السرىَ[1] بمائه المترقرقِ
وَسمَا على أقرانه ببيانه ... حتى استرقهم بحرِّ المنطقِ
وأذاب مهجة ضده برؤايه ... حتى تمنى الضد لو لم يخلقِ

(١) السرى نهر صغير كالجدول

فـإذا تكلم فـالمعـانى فى بديـ ـع بيـانه كـالعنبـرِ المتـفـتَق

وإذا بـدا فـــــالـــــــدر لـيلـة تمـه

فى الحسن بل شمس الضحى فى المشرق

وإذا انتنـى أثنى على عـطفـــيــه فى

روض المحـــاس كـل غـــصنٍ مـــورق

آيات حــــسـ فى كـــمـــال خـــلائق

هيـــهـــات أن تـلقى بمن لـم يعــشق

فـهل كـان (ڤكتـور) كـذلك قـبل أن عـرفناه ؟ وهل عـهـدت به تلك الصفات قبل أن ألفناه ؟

نعم. نعم هـو الآن كما تقولين. ولكنك ذكرت شيـئًا وفاتتك أشياء، فذهلت عن سوء العاقبة ولم تفطني للأخطار، وهبي أن (ڤكتور) راض بما أحرز من المجد والفخر، فهل تحسبينه ناعم البال مطمئن النفس لا يكابد العناء فـى موقفه الحــرج بينــي وبينك ؟ ولقـد رأيت الآن كيـف عـجز عن احتمال عذابه؛ فاختار الفرار

– إن كان الأمر كذلك فهلاً بقيت فى (بواتو).

– ما تألمت يا سيدتى فيما تقولين ولك العذر، فإنك لست أما، فلا تعرفين مقدار الغم الذى يحيق بمن ترى مستقبل أولادها على خطر الفساد والضياع

– لقد غلبتنى الحدة فيما قلت، ولك علىَّ منه العفو والحلم، آه لو تعلمين ما أقاسيه.

– أعلم ذلك ولا أجهل شيئًا مما أنت عليه إلا ترددك فى افتداء (ڤكتور) مما نخاف عليه، تبصرى فى الأمر هنيهة تعلمى أنه لا نجاة لنا من البلاء ما دمت تقتحمين ما حولك من النوائب والأخطار.

– آه. ثم آه. لو كنت مكانك وكان بوسعى أن أعيد له الراحة، ولو ساغ لى أن أتركه وشأنه.

– ما كنت تفعلين.

– بل أفعل لا محالة، وقد فعلت من أجله ومن أجل أولادى ما كان أعظم من ذلك إذ أقمت عنده أرى بعينى كل شىء وأصبر على كل ما أرى، وهو الصبر بل أمرُّ، والنار بل أحرُّ.

ثم انقطع الحديث هنيهة من الوقت و(أليس) تبكى بكاء مرا وتتلهف عن كبد حرى، فدنت منها (مارى) وقبضت على يدها وهى تقول :

– خفضى عليك يا سيدتى وتجلدى، واذكرى ما عليك من الواجبات وإنك إنما تبذلين راحتك فى سبيل محبتك، فذلك يحيى العزم ويعلى المروءة. عرفت ما أقول بنفسى ولا تسألى إلا خبيرًا، ثم ادعى الله يكن لك نصيرًا. إن الله يحب الذين يؤثرون على أنفسهم ويجزيهم الخير عاجلاً أو آجلاً .

من يصنع الخير لا يعدم حوائزه

لا يذهب العرف بين الله والناس

- آه يا سيدتى لا أستطيع.

- بل تستطيعين إن أردت

- أسفًا. إنى أضعف مما تقولين عزمًا وأضيق مما تطلبين جودًا وكرم نفس.

- صلى واستعينى بالله.

فصمتت (أليس) والعَبْرة تكاد تخنقها، وأطرقت (مارى) وهى تنتظر الجواب، فلم يكن يسمع فى ذلك المجلس غير شهقات الباريسية الحسناء ساعة من الوقت، ثم استعانت (أليس) بما بقى فيها من القوة، فكفكفت عبراتها ونظرت إلى مارى نظرة الآيس وهى تقول

- نعم. *الحق ما* تقولين فلا بد من قضاء *الأمر*. ولا بد من *إطاعتك يا سيدتى*.

- ليس ما أقوله أمرًا فتكون إجابتك طاعة.

- بل لك الأمر فأنت صاحبة الحق، ولست أجهل منتك علىّ فى هذا اليوم ولا أنكر ما رأيت من كرم نفسك ورقة طبعك فيما سلف، وقد حان لى أن أُوْفى هذه الحقوق فكونى مطمئنة، ستستريحين منى وأترك لك زوجك ولا أراه أبدًا فتحصل الراحة والسعادة للكل.

– وأنت تكونين سعيدة كلما ذكرت نتائج ما تبذلين لنا من المعروف والفداء.

– لست أنا المقصودة فيما أفعل وإنما القصد أنت و«هو» وأولادكما والموسيو (ڤلمورين) (تعنى زوجها) ثم والدتى آه ياربآه ما لى غير والدتى.

– إن ما تعلمينه الآن يكسبك رضاها لا محالة.

– وا أماه.

إنها تحبك حبا عظيماً

. . سيدتى. أسألك أن تمهلينى فيما وعدتك ثمانية أيام وتأذنى لى فى رؤية (ڤكتور) مرة أخرى، ثم ينقضى الأمر.

– أيليق بى أن أرد لك طلباً بعد أن وهبت لى حياة زوجى وسعادة آل بيتى، بارك الله فيك وجزاك عنى خيراً.

فخفضت (أليس) رأسها إخفاء لدمعتها وستراً للوعتها، فدنت (مارى) منها وجعلت تؤانسها ما استطاعت محاولة تخفيف ما بنفسها من الألم واليأس فكانت تنظر إليها ولا تسمع كلامها أو تسمعه ولا تعيه ثم قالت لها اقتضاباً.

– عدينى ألا تذكرينى له بسوء بعد الفراق.

– وقانى الله من ذلك، إنى أعرف واجب حسن الذكر ولا أجهل حق ذوى الأنفس الكريمة، فلا تخافى منى اغتياباً، ولسوف أحفظ لك صديقاً صادقاً

- حياك الله، ما أكرم هذا الخلق وما أشرف هذه النفس

- لأنت أكرم خلقًا وأشرف نفسًا فيما تفعلين.

- أستودعك الله ياسيدتى، أستودعك الله أبدًا، إنى سائرة عنك لأحاول كتمان آلامى عن قومى، وهذا هو العذاب الأعظم.

- وماذا تريدين أن أقول لـ (ڤكتور)..

- ما شئت، فأنت صاحبة الأمر وبيدك حياته وحياتى

- ولكن لا بد .

- سأبعث إليه كتابًا..

ثم انطلقت خارجة من باب المنزل تغالب اليأس بالجلد ولا تلوى على أحد

(٧)

هو الحبُّ فاسلم بالحشى ما الهوى سهلُ

فما اختاره مضى به وله عقلُ

وعش خاليًا فالحب راحته عنًا

وأوله سقم وآخره قتلُ

وبعد خروج الباريسية الحسناء ببضع دقائق عاد (ڤكتور) إلى غرفته متزعج النفس مضطربًا أصفر اللون كأنما هو خائف من حضور زوجته فابتدرته (مارى) بالكلام وقالت.

– لقد كانت مدام (ڤلمورين) آية من آيات الشرف والكمال، فإنها فدتنا بنفسها كرماً وجوداً وصفاء نية فلله درها من صديقة صادقة، وهى تروم أن تكتب إليك وتراك مرة أخرى، وقد صار لها علينا حقوق عظيمة، فلا تنس حقها ما حييت وابذل الجهد فى قضائه بالانعطاف إليها والاهتمام بخدمتها والاقبال عليها.

فقبض (ڤكتور) على يد زوجته ولم يفه بكلمة، فقالت

– أراك متألماً مكتئباً حزيناً فلا تخف ذلك عنى

فلا بد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجعُ

– نعم. إنى زوجتك ولكنى غير مقيمة لديك إلا لأحنو حنو الوالدات عليك، فأداوى سقمك، وأخفف ألمك، وأصفح عن هفواتك، وأحملك على نسيان زلاتك، هذا هو شأنى لديك عرفته منذ اقترانى بك والتزمته بعد إذ أراد الله عز وعلا أن يبتلينى بما ابتلى. فهل تريد الآن أن ترى أولادنا؟

– شكراً لك أيتها الحبيبة العزيزة على عفوك الذى لا حد له، وجودك الذى ليس له مثيل، شكراً لك ألف مرة، إنى منذ الآن لك ولأولادنا دون سواكم وأنتم الرابطة التى بينى وبين الحياة، وسأراكم بعد ساعات قليلة، أما الآن فإنى محتاج إلى العزلة فى صرف هذا الحادث الذى لم يطرأ علىَّ فى حياتى أعظم منه، وقد ظهرت لى جسامة ذنبى، وتبينت جمال صبرك وكمال جودك الذى كان من وراء العقول، وأريد الآن أن أكون

أهلاً لك وجديراً بك فدعيني غير مأمورة أطلب العزلة حيناً من الوقت، ثم نلتقي

فانصرفت عنه (ماري) قاصدة غرفة أولادها وهي تقول ما أعظم حبه وما أشد جواه. ويلاه. إنه سيكون شقيا

وبقي هو في عزلته مستسلماً للغم منقاداً للعذاب، فعظم الأمر عليه حتى لم يكد يصدق ما رأته عيناه وسمعته أذناه، شأن الواقع في البلاء العظيم والخطب الجسيم يراه خارقًا للعادة، بعيداً من المعهود فيداخله الريب فيه بداءة بدء، وأن علمه علم اليقبن، فكان أي (فكتور) يتساءل هل عدل خفية عن حب (أليس) ورضي أن تبذل راحتها، بل حياتها في سبيله، فتتقد النار في مهجته وتظلم الدنيا في عينيه ثم يذكر زوجته وما عاملته به من الرقة والإحسان وأولاده وما لهم عليه من الحقوق، فيزداد ألما وعذابا على عذابه وألمه، وهكذا تكون عاقبة الذين يعدلون عن سبيل الواجبات، فأما الرجال فيعدمون الراحة، وأما النساء فيفقدن الحياة المعنوية أي الشرف الذاتي إن لم يفقدن الأرواح

ثم أتوه بكتاب من (أليس) ففضه فإذا فيه.

«علمت الآن لا شك ولا ريب كلما جرى فأنت تبكي كما»

«أبكي أنا لأنك تحبني كما أحبك، وقد كان ما جرى لنا محتوماً»

«لا مفر منه فلو لم يقع اليوم لوقع يوماً آخر لا محالة، فقد كثر ما»

«حال بيننا من الموانع وكان كل ما حولنا موجبا لافتراقنا، ولم»
«يكن وجدنا ليكون كل منا للآخر، ولقد وعدت زوجتك أن»
«أبت عقدنا وأنقض عهدنا ولا أراك منذ اليوم إلا مرة واحدة»
«وسأبجر ماوعدت مستمدة ما يلزمنى من الجرأة والجلد فيه من»
«كوبى أرجو أن تستريح بما أتعب، وتسعد بما أكابد من الشقاء.»
«وقد بقى علىَ واجب آخر وهو أن أرد لك ماضى وعودك وأطلقك»
«من عهودك فاسترد هاتيك الكلمات الطيبة والإيمان والمواثيق»
«المكررة على ألاَّ نفترق بحال من الأحوال وأن نختار الهيام فى»
«الأرض معا على الفراق، وابق لدى زوجتك فهى ملك كريم»
«يسليك من كل أحزانك واحببها واحن على أولادك، ثم لا تنس»
«المرأة التى بذلت حياتها فى سبيلك، أستودعك الله الآن وأرجو»
«أن أراك يوم أكتب بذلك إليك، ثم لا نلتقى بعدها فى هذه»
«الدنيا، فاسلم ولا تكن شقيا ومع ذلك فاذكر ودادى وكن»
«وفيا»

أليس

فقرأ هذا الكتاب وأعاده حتى كاد يمحو سطوره بدموعه أو يحرق قرطاسه بما تأجج من النار بين ضلوعه، ثم انطرح على مرتبته مجهوداً ضائع الجلد مدلها غائب الرشد ينشده لسان الحال قول من أطرب حيث قال.

رأى اللوم من كل الجهات فراعهُ   فلا تنكروا إعراضهُ وامتناعهُ

ولا تسألوه عن فؤادى «وإن أكن»   علمت يقينا أنه ما أضاعه

فيزيد داعى الغرام على هذا النظام

نعما زمانا مر كاليوم عامه   بشمل جميع لا نخاف انصداعهُ

وكنا كسرٍ ضاق عنه ضميرهُ   ولم يستطع كتمانه فأذاعهُ

فدار بنا العذال من كل جانب   يلومون لوما لا نطيق سماعهُ

وقد راع ظبى الحسن منهم رقيبه   «وأصعب شىء ما يزيل ارتياعهُ»

ومضى على (ڤكتور) فى هذه الحالة يومان ولم يأته عن الباريسية الحسناء خبر، فكان يقاسى العذاب الشديد، ويحاول إخفاء ما به عن زوجته فتراه بعين الفراسة فتكابد من جرائه عناء مرا، ثم جاء (ڤكتور) فى اليوم الثالث رقعة ليس فيها غير هذه الكلمات.

«غداً فى الساعة الثانية فى منزلى بـ (أوتويل) وهى المرة الأخيرة».

فلما كان الغد وقرب الميعاد دخل (ڤكتور) على زوجته وقال

- أيتها العزيزة لقد صرنا إلى حالة لا أريد فيها مخادعتك، إنى سائر إلى (أوتوبل) ألقى بها مدام (ڤلمورين) آخر مرة، وعليَّ عهد الشرف لا أراها بعد ذلك، فثقى بما أقول فإنى تأملت الأمر وتدبرته وما أعد إلا ما أستطيع وسأخبرك برجوعى متى عدت.

- إنى معتمدة عليك أيها الحبيب، فسر بحفظ الله واحفظ فؤادك وفؤاد تلك المسكينة من الألم والعذاب ما استطعت

فركب (ڤكتور) عربته قاصداً (أوتوبل)، فلما وصل منزل المركيزة رأى باب الحديقة مفتوحًا خلافًا للعادة، فدخل واجتاز البستان إلى الدار، فرأى (أليس) تنتظره على موقف الدرج صفراء مكتئبة بدلت شدة الحزن هيئتها وغيرت محاسن خلقها فتلقته بوقار وتمهل يشبه أن يكون فتوراً وقالت

- هلمَّ إلى غرفتى، فإنى ههنا وحدى، وقد اخترت الانفراد توقيًا واحترازًا، ولكى لايزعجنا أحد من الخلق، بل قل لسائق عربتك أن يسير بها إلى بيت الخولى ويربط الخيل هناك، وأغلق أنت الباب الخارجى، وانزع مفتاحه، وعد إليَّ لننفرد فلا يرانا إلا الله، إن هذه الساعة رهيبة وإنها آخر أوقات اللقاء.

فامتثل (ڤكتور) أمرها، ثم عاد فوجدها فى الغرفة منطرحة على تكأة عريضة واهنة العزم ضجراً وتألمًا، وهى لابسة ثوبًا أبيض وعلى شعرها زهرة ناضرة وعلى صدرها باقة من الزهر وكان فى الغرفة ريح

عطر وأزاهر من أشد الطيوب أرجا، فأثرت فى نفس (ڤكتور) حتى كاد يغشى عليه فمدت له (أليس) يدها، فتناولها وقبلها تقبيلاً، فقالت ·

– أرأيت كيف جعلت هذا الملتقى الأخير والوداع الذى ما بعده لقاء مزيناً بكل ما جلب لنا السرور والصفاء فى أوقات السعادة والهناء، فهاهنا فى هذا المكان عينه قضينا أياماً كثيرة مرت بنا كالأحلام، نجنى زهر المنى من حدائق الحب «والعيش غض، والزمان غلام» ومن حولنا هذه الأزهار وهذه الدمى والتماثيل، فما أجدرنا بأن نجعل الوداع فيه لنذكر فى ملتقانا الأخير ما مضى لنا من الفرح والهناء. أما ترانى مصيبة يا (ڤكتور) ؟

وكان جمال (أليس) وهى على تلك الحالة فى كمال ما عهد به من قبل ولكن تغير تجليه، فكانت رشاقة حركاتها ومبالغتها فى الاهتمام بملبسها وزينتها وكل ما حولها أظهر منها فى الأيام السالفة لكنها قد استبدلت حدة مزاجها وهاتيك اللحاظ التى هى كالنبال بسكينة تدل على أنها ضائعة القوة، واهنة العزم، لاتملك من الحياة إلا بقية، فكأنما أغار اليأس على تلك الطبيعة القوية فلم تقاومه، بل وسعت له عندها مكانا، وكان (ڤكتور) ينظر إليها هائماً فى أودية التأمل فلم يجبها على سؤالها الأخير، فقالت ·

– أى (ڤكتور)، هل مسك ألم من تحتم الفراق ؟ وهل علمت أن ليس بعده من تلاق ؟ فذكرت قول من قال فى مثل هذه الحال :

وكنا كندماني حذيمة صحبة　　من الدهر حتى قيل لن تتصدعا

فلما تفارقنا كأني ومالكا　　لطول افتراق لم نبت ليلة معا

– ثم هل رأيت السلو سهلاً ؟ وهل طاب لك العيش من بعدى ؟

عسيرى على السلوان قادرُ　　وسواى فى العشاق غادرُ

لى فى الغرام سريرةٌ　　والله أعلم بالسرائرْ

– فلا تكلمينى هذا الكلام فهو أشد من الكلام بل هو الموت الزؤام، وقد صرفت الأسبوع متقلبًا مما نحن فيه على شوك القتاد أرى النهار مظلمًا ولا أكاد أذوق فى الليل الرقاد

أهنى وأيسر ما لاقيت ما قتلا　　والوجد جار على قلبى وما عدلا

– وقد علمت أن الضرورة أنفذت فى حبنا حكمها، فأنفذت فى قلبنا سهمها، فتعين عليَّ أن أبذل فى سبيلك الراحة والمنى كما بذلت من أجلى السعادة والهنا ولكنى مع ذلك لا أطيق هذا المصاب ولا أجد من نفسى مقدرة على احتمال هذا العذاب.

كيف اصطبارى والنوى خوفها　　أضرم فى الاحشاء نار الجحيم

وأنت منى الروح من بدنى　　إن فراق الروح شىء أليم

لم ندر مقدار الهوى قبل ما　　يدل منه بالشفاء النعيم

وصحة الأبدان لم يدر ما　　مقدارها إلا المريض السقيم

- صدقت لقد كنا روحين فى بدن واحد وكنا فى مثل جنة الخلد سعادة وفرحا وهناء، لا أروم إلا ما تريده أنت ولا تطلب إلا ما أرومه أنا، واليوم لا بد لنا من ترك ذلك كله امتثالا لأمر الناس، إنما الناس بلاء الناس.

لو شئت يا راحة الروح ولو لم ترفعى عنى العهد والميثاق لنشطنا معا من هذا العقال، وقصدنا ملاذاً من الأرض بعيداً عن الرقباء، وكنا به الآن مقيمين آمنين.

نعم. لاريب عندى فى ذلك وإنى لو شئت لتركت وطنك وآل بيتك وكنا نسافر معًا ونلقى اليأس فى قلوب المحبين، ولكن لو فعلنا لكانت العاقبة عذابًا شديدًا، فإنى أعلم أنك لا تصبر على لوم النفس، بل ربما قتلتك شكوى السريرة، وكنت ترى فى حلك وترحالك خيال زوجتك آسفة حزينة، وأولادك باكين مكتئبين ووالدك رازحا تحت أثقال الحزن، ثم لا تذكر لى ذلك ولكنه لا يخفى عنى فينالنا الشقاء ويكون الأسف الأول مضعفا للثقة، والثقة عماد الحب فيسقط الاثنان معًا، ولقد تأملت فى كل هذا منذ يومين حتى ظهر لى وجه الحقيقة منه' ولذاك أعيد قولى إنه لا بد لنا من الافتراق.

- ومن لى بالصبر يا (أليس). أراك اليوم ثم يجيء غده وتتوالى بعده الأيام والأسابيع والأشهر والأعوام ولا أبصر هذا الجمال؛ إن هذا هو المحال.

تقــول العــواذل من بعــد مــا أطلن الملام بقــيـل وقــال

حـقـيقٌ حـقـيقٌ وجـدت السـلوَ فـقلت مـحـالُ مـحـالٌ مـحـالٌ

وكيف ترومين يا شقيقة الروح أن أصبر على تجريد حياتى من رونقها الأوحد وشاغلها المفرد وأبقى بعد ذلك بين هواجس الفكر ووساوس الذكر متقلباً على مثل شوك القتاد.

– لا بأس عليك، فإنك لا تكون منفرداً وحيداً.

– هذا الذى تشيرين إليه أشد علىَّ من الانفراد، فإنى سأرى لدى على الدوام ضحية ثانية لا ذنب لها، تحتمل عذابها ويؤلمها عذابى، وتتجلد لمصابها ولا تتسلى عن مصابى، ثم لا أجد من أمنية أعللها بها فى الحال أو المآل، ولا أرى غير اليأس القاطع لأسباب الآمال، لكن الموت خير من هذه الحياة.

– الموت. الموت. نعم نعم. هو الصديق الذى يمد لنا ذراعيه عندما ينفر الناس عنا

– ما ضر لو كنا نموت يا (أليس).

– لا. أنت لا ينبغى أن تموت يا حبيبى، فإن أولادك محتاجون إليك، أما أنا فإنى مطلقة الحرية لا شىء يمنعنى عن التخلص من العذاب.

– نشدتك الله ألاَ ما أوضحت لى ما الذى تعنين بهذا الكلام ؟

– ما عنيت إلا ما فهمته أنت.

– الآن تبين لى سر هذه الخلوة وهذا التجلد وهذه الزينة، فعلمت أنك قد عزمت على الانتحار

– وإن صح ذلك فماذا علىَّ منه.

– ما عليك من حرج فيما عزمت عليه إلا أنك لم تتخذينى فيه شريكًا.

– أصحيح ما تقول. أتحبنى إلى هذا الحد! وفرحتاه

– أى وخالق الحب والنوى، وفالق الحب والنوى، إن الموت معك لأهون من الحياة فى البعد عنك، ولقد قبلت ما سمتنى من الفراق جهلاً منى بحقيقة ما نحن عليه، وكنت أنت أعرف منى بمقدار حبنا، فاضمرت ما أراك الآن عليه، فمتى ترومين أن تموتى ؟

– اليوم.

– وكيف ذلك؟!

– أما قرأت فى كتاب (ليون غزلان) قصة تلك الفتاة التى ماتت مختنقة بروائح الزهر.

– نعم قرأت هذه القصة.

– فهذه ألطف وسيلة رأيتها لترك الحياة، ولقد تأملت فيها كثيراً وكنت أذكرها كلما سكرنا بخمرة الطرب والهناء، فترتاح نفسى إلى أن

أرقد على ما بى من الفرح، ذاك الرقاد الذى لا ألم فيه ولا خوف بعده من اليقظة، وقد كدت أعرض ذلك عليك مائة مرة ولم أفعل، فمذ دهمنا اليوم الأسود الذى انقطعت فيه صلات اللقاء عزمت على ماعلمته الآن من أمرى عزمًا صادقًا، فقصدت عالمًا بارعًا من علماء النبات، فسألته عما يوجد فى باريس من الأزاهر السامة الرائحة موهمة أنى أخافها وأروم اجتنابها، فكتب لى جريدة بأسمائها زهرة زهرة، ثم علمت منه بوسيلة من الكلام درجة الحرارة التى إذا وجدت معها تلك الأزاهر كانت قاتلة الرائحة، واخترت الموت على هذه الصورة؛ لأنها جميلة تمثل عندى فتاة بارعة الحسن مكالة بالزهر. فمتى فتحت هذا الباب أدخل هذه الغرفة ولا أخرج بعد ذلك منها، هذه حقيقة الحال قد أبنتها لك قضاءً لحقك علىَّ فإن أردت موافقتى على ما نويت ورأيت البعد أصعب من الموت، فليس من حقى أن أمنعك من ذلك فأنت تحبنى كما أحبك وإن متنا معا فقد حفظنا ما تواثقنا عليه من عدم الافتراق.

وكان (ڤكتور) ينظر إليها وهى تتكلم نظر العاشق إلى المعشوق، بل نظر العابد إلى المعبود جاثيًا بين يديها مستسلماً لكل ما تصوره الشهوة فى مخيلته من فاسد الوهم فلما فرغت من كلامها صاح

– كيف لا أريد ما أردت، ولا أقصد ما قصدت وهو أحب الأمانى إلى، فإنى وقد فرق بيننا الزمان لم يبق لى من بغية إلا أن نموت معًا، فنجتمع اجتماعًا لا خوف بعده من الفراق. وما أنتظر الآن إلا أن تقولى فأفعل، وتأمرى فأمتثل.

فألقت بنفسها عليه فضمها إليه، وتعانقا عناقًا كاد يفصل روحهما عن البدن وجداً فكانت هذه الدقيقة أحسن وأطيب وأشهى وأعذب ما مضى من حياتهما إلى ذلك اليوم، ثم خطر لـ (ڤكتور) خاطر جديد فقال

– أروم أكتب إلى (مارى) فأستودعها الله وأودِّع والدى وأولادى، آه وا أسفاه عليهم، وما الأسف لموتى فإنهم لايفقدون به عظيمًا. إنى ما كنت لولاك شيئًا مذكوراً ولو انفصلت عنك لأضعت ما بى من الذكاء والإقدام فعدت بليداً مستضعفًا لا أرجو من الزمان مستقبلاً حسنًا

ثم نهض إلى مكتب فى الغرفة وتناول القلم، فخط به أسطر الوداع الأخير لزوجته التى أحبها ابتداء ذلك الحب العظيم، ثم هجرها ذاك الهجر الأليم، فتأمل فيما سينالها بموته من الحزن واليأس، فما تمالك أن بكى فنظرت إليه (أليس) وقالت

– إن كنت قد ندمت فما فات وقت الرجوع يا (ڤكتور)، أنت حر ولا لوم عليك

– لست أبكى على نفسى يا شقيقة الروح ولكن عليها، وقد انقطعت الآن عن الدنيا بأسرها، ولست أملك نفسى وإنما أنا عبدك المطيع، فامرى بما تريدين

ومضى عليهما فى هذه الحالة بضع ساعات يتجاذبان أطراف الحديث القديم، وتغنيهما أقداح الأحداق عن المدام والنديم حتى أقبل

غراب الليل مسدول الجناحين، فقالت الباريسية الحسناء لقد حان الدخول إلى غرفة الزهر فنهضا إليها ناشطين وافتتحا بابها قليلاً فهب عليهما من أرجها القاتل ماردهما عن الباب مكرهين فقال (ڤكتور) باسماً·

– ما الذى أرى، أيليق بنا أن نخاف من الخيال ونهرب قبل القتال. ثم أخذ بيد المركيزة وأدخلها الغرفة وهو يقول

– ما أحسن هذا القبر وكيف لا يحسدنا الأحياء على الموت فيه على هذا المقعد بين هذه الأزهار.

– صدقت وإنى لأرى الموت حياة لنا، غير أنى أرانا فى ريعان الشباب وغضارة الحياة وفينا حسن بارع ولنا مستقبل لامع، وكل ذلك لم يزل بقبضة اليد، ولكن كل ذلك لاخير فيه ما لم يكن الحب ولا حياة فى الحب مع الفراق، فهلم يا حبيبى نطرب على ذكر الحب لآخر مرة واسمع منى فى ذلك أصوات غناء تملأ قلبك طرباً

ثم جلست إلى البيانو[١]، فضربت عليه وغنت بصوت عال شج ضرباً من محاورات الغناء[٢]، يقال له (الفافوريت) وكان (ڤكتور) يرد أجوبة المحاورة مجيداً، فحسن غناؤهما على هذه الصورة حتى أنه ليمكن القول إن تلك الأغنية لم يغن بها من قبل هذه المرة غناء أشد تأثيراً فى الأنفس

---

(١) آلة طرب إفرنجية معروفة

(٢) المحاورة فى الغناء ضرب منه يغنيه اثنان على التعاقب

وما ذلك إلا لأن انفعالات النفس أقوى وأطيب وأحسن وقعًا فى القلوب من جميع الشهوات الحسية، وهى أعلى من أن يعرفها كل أحد من الناس فمن عرفها آسف على فقدها ما دام حيا

ومضت عليهما ساعة من الزمان على هذه الحالة، ثم ظهر فيهما تأثير السم من رائحة الزهر وكان كل منهما لاهيًا عن آلمه اهتمامًا بألم حبيبه فقال (ڤكتور)

- كيف أنت يا (أليس) ؟

- على أحسن حال.. فقد وافى الرقاد.

وكانت مع ذلك شاعرة بسريان الحمًّى بين عظامها، ثم قالت

- وأنت كيف حالك ؟

- إنى أراك وأنعم بالقرب منك فما يعوزنى شىء.

وبعد ذلك صمتا هنيهة من الوقت حتى بلغ منهما الخدر مبلغًا بعيدًا فقال (ڤكتور)

أتعلمين يا راحة الروح ماذا أرى الآن! أرى على شكل الصورة البعيدة هاتيك الأودية البهية فى مسقط رأسى وموطن أهلى وناسى، وتلك الأطلال التى تلاقينا عليها أول مرة، والعين التى قبلتها منى هدية وكانت أول معاهد الحب، آهٍ ما أبهى وأبهج هاتيك الرياض والمراعى والغياض.

وقصرنا القديم، وخطرات فكرى بين تلك الغابات وأمانى نفسى التى لم أكن أدركها والملك الكريم الذى حقق تلك الأمانى، كل هذا أراه الآن بعين التصور. فهل تذكرين أنت هاتيك الأويقات الصافية؟ وما أدركنا بها من نعم السرور الصافية ؟ وتلك المعاهد الناضرة والربوع الزاهرة وما ازدانت به من المحاسن الباهرة ؟

ربوعٌ تمرُ الريح فيها فتكتسى بها أرجًا هوج الرياح الهواجم

إذا مرضت فيها الأصائل عادها على شعب الأغصان نوح الحمائم

يذكرنا دهرًا تقضى نعيمهُ وعيشًا تولى مثل أضغاث حالم

ولعلك تذكرين أيضًا أنى منذ جمع بيننا العهد فى ذلك العهد ما أورثتك شيئًا من الكدر عمداً ولا خالفت لك أمرًا، ولا ألوت فى طاعتك جهداً بل راعيت ودك، وحفظت عهدك، وما برحت أقيم الأدلة على تولهى فيك غرامًا حتى جعلت الموت فى حبك لأدلتى ختامًا، وكنت قد عاهدتك على ذلك فما نكثت وحلفت فيه وما حنثت.

فأجابت وكان صوتها ضعيفًا لا يكاد يسمع

– نعم. نعم. أذكر كل هذا وإنى كنت سعيدة مليحة فتانة غضة الشباب، محببة إلى الأنفس، جذابة للقلوب، لا أجد من حولى إلا محبًا أتيمه بابتسامة أو عاشقًا أذيب فؤاده بالتفاتة، إذ الأيام قريبة الأمنية دانية الأرب، والحياة كلها صفو، والعيش كله طرب، وقد سمحت بكل ذلك يا (ڤكتور) ولست نادمة عليه !لأنك أحببتنى حبا صادقًا...

وحينئذٍ ضعف نور القنديل، وآذن خفقانه، بالانطفاء. فقالت (أليس) :

– لست أدرى ما الذى اعترانى، إنى لا أكاد أبصر، فكأنما على عينى غشاوة

– عما قليل لا تبصر شيئًا، فهذا لسان الضوء الضعيف ينذرنا بأنه ميت وأنًا تابعان له.

– أوًاه، لا أريد أن أموت فى الظلمة يا (ڤكتور)، بل أروم أن تحدق عيناى بعينيك إلى آخر نسمة من الحياة، ثم أريد أن أرى هذه الأزهار، وأنظر إلى يدى وإلى محاسنى فى هذه المرآة فأوقد القنديل وأرفع نوره جعلت فداك.

– لا فائدة من ذلك، فما بقى فى القنديل زيت، ولكن ما للقمر لا يضىء علينا وهو الليلة فى تمًه؟!

– إنى ألقيت على زجاج الشبابيك ستائر كثيفة حتى لا يدخل الغرفة شىء من الهواء، فاحتجب عنها لذلك نور القمر، فلسنا نراه، ولا نرى شيئا مما بظاهر هذا المكان.

ثم تنهدت تنهد الآسف الضعيف، فقال (ڤكتور) .

– هل كتبت إلى أمك يا (أليس) ؟

– نعم، كتبت إليها وإلى زوجى وإخوتى، وجعلت الكتب على مكتبى فى غرفتى.

– وهل يعرفون مكانك الآن ؟

– يحسبون أنى سرت إلى (لوسيان) لأصرف النهار، ثم أبيت عند شقيقتى الكبيرة.

فأمسك هنيهة عن الجواب، واقترن حاجباه، وانقبض جبينه تفكيراً، ثم قال

وهل أخبرتهم فى تلك الكتب بما كنت عازمة عليه من الانتحار ؟

– أخبرتهم بذلك إلماعًا وتلميحاً.

– ولِمَ هذا ؟

– لم يكن لى فيه قصد

وكان الألم قد اشتد عليها نهاية الاشتداد، فقالت

– (ڤكتور).. إنى ظمآنة ظمأ شديدًا

فناولها كأساً من خمر شمبانيا كانت بالقرب منه، (فقالت)

– لست أريد الخمر.. إنما أريد ماء.

فلم يجبها، فشربت من الكأس وأعادتها إليه، فأراد أن يقبل يدها فجذبتها منه ولم تمكنه من تقبيلها، فلبثا بضع دقائق ساكتين ساكتين لا ينطقان بكلمة ولا يتحركان حركة، ثم قال (ڤكتور)

– (أليس) الله .

فقالت وهى ساترة وجهها بيديها

– ويلاه.. من غضب الله ولكنه سيعفو عفواً كريماً.

إلـهـى لا تـعـاقـبـنى فـإنىَ مـقـرُ بالذى قـد كـان منَى

وما لـى حيلة إلا رجـائـى وحودك إن عموت وحسن ظنًى

– لعله يعفو ويرحم.

– حـبـيـبى (ڤكتـور). إنـى لم أنم كمـا توهمت قـبـلاً.. لقـد خـدعنى النباتى، فإنى أكابد آلاما لا تطاق.

– أترومين أن أفتح الباب ليذهب عنك الألم ؟

– لا بل لو أردت ذلك لما أمكن فإنى أبقيت المفتاح خارجًا

– إذن ما برحت عازمة على شرب كأس الموت.

– إلى آخر نقطة منها.

– أوَ مَا تخافين الندم حين لا ينفع ؟

– لا لست أخاف الندم ولكن قد اشتدًّ علىَّ الألم.

– وأنا.

وكانت (أليس) تتقلب على المقعد مما نالها من لفح السم و(ڤكتور) بين يديها ينظر إليها متألمًا صامتًا، ويمسح من حين إلى حين ما كان

يقطر من جبينه وسائر وجهه من عرق الألم، ثم انطفأ القنديل. فقال ·

– اللهم عفواً . االلهم عفواً ..

– أواه أواه. هذه بداءة الموت.

ثم طفقت تبكي بكاء الأطفال وهو لديها صامت يحتمل من السم وحرارة الحمَّى عذاباً من مثل عذاب الجحيم، ثم قالت ·

– (ڤكتور، ڤكتور). هذه آلام مرة المذاق، هذا عذاب لا يطاق. آهٍ ما أصعب الموت ! آه ما أشنعه !

– نعم. إنه من الصعب المستنكر أن يموت المرء في ريعان شبابه، ونضارة ذهنه، وبحبوحة لذته ومجده، آه يا (ماري) ويا أولادي ويا والداي.

– هل تولاك الندم.

– نعم. ندمت.. ولا غرو فإنهم يندمون لاشك عليَّ... آهٍ وا أسفاه عليك يا (ماري). ياملكاً كريماً .

– ويلاه. يارباه. لم يزل يذكرها .

– إن ذنبي إليها لذنب عظيم، فإنها ستموت لموتي لا محالة.

– يعيد ذكرها متأسفاً عليها، وا أسفاه. وأنا أكابد عنائي، وأكتم دائي حتى لا أورثه غماً ثم أراه بغيري مشتغلاً مهتما..

- أتحسدينها على أن أذكر نئبى إليها بعد إذ رضيتُ الموت بين يديك.

- ويلاه ويلاه. تراكمت الآلام وتواترت الأكدار.

ولو كـان ضـرٌ واحـدٌ لاحـتـملتـهُ ولـكنه ضـــرٌ وثانٍ وثالثُ

تمـــزّقُ أحشـاءٍ ولاعـجُ حســـرة وغدرُ محبٍ للمواثيقِ ناكثُ

ثم عادت إلى البكاء حتى نفد الدمع أو كاد، ثم قالت بعد فترة طويلة

- (ڤكتور، ڤكتور). عدت عن عزمى فلست أريد الموت.

- قُضِيَ الأمر، وجف القلم، يا (أليس). قدر هذا علينا فكان، فلسنا نخرج من هذا المكان.

- لا لم يفت شىء ولم يقض أمر. ولم تزل الحياة قريبة المنال منًّا . فما يعوزنا إلا شىء من الهواء. فافتح النافذة نشدتك الله.

- لا. لا يمكن، لا يمكن. ولا بد من الموت.

- لست أريد أن أموت. لست أريد. أموت وعمرى عشرون سنة وكل ماحولى يتبسم لى، فالثروة ترفعنى مكانًا عليًا، والجمال يلبسنى ثوبًا بهيا والناس من حولى يتلون تبارك الله الواحد الأحد فيصيح العاشقون منهم مدد الله مددًا. لا. لا أريد الموت، لا أريد الموت.

- لا بد منه ولا ندحة عنه.

– إذن تروم أن تقتلني صبراً، وكان حبك خديعة وغدراً، فما فيك من شفقة عليَّ ولا رحمة. ولا أنت تذكر لي ذمة ولا حرمة.

– هذه عاقبة جنوننا، فذوقي ما كسبناه، فإنما للمرء ما سعى وإن سعيه سوف يجزاه.

– صدقت لقد كان ما فعلناه جنوناً، فقد كنا نستطيع الصبر على ما قضى به علينا من الفراق، ثم نتأسى فنسلو، فينفتح لكل منا باب جديد من الهناء والمسرة، فهي الدنيا نعيمها زائل وبؤسها غير مقيم وقد رأينا العِبرة بأنفسنا، فلنعتبر الآن وعفا الله عما كان.

– لا فائدة بالعبرة فيومنا ليس له من غد

– لا تطل المزاح فيما يزهق الأرواح، واكسر زجاج هذه النافذة ليدخل الهواء، فتعود إلينا الحياة كما عاد إلينا الرشد والهدى

– لا أكسره أبداً..

– إذن أنا أفتح النافذة

فأخذ بيديها أخذ المقتدر، وقال ·

– لن تبرحي من هذا المكان.

– عدمتك من لئيمٍ غاشمٍ تستعلي بقوتك الوحشية على الضعيف، دعني؛ فلست أريد أن أموت من أجلك ولا معك فقد أبغضتك نفسي.

– وأنا أبغضك أيضـا، فـأنت التى أوصلتنى إلى هذا الموقف، أنت التى قتلتنى وهدمت ما بنيته من السعادة والراحة لمستقبل الأيام وحملتنى على ارتكاب الذنوب العظيمة ولولاك ولولا دهاؤك السيىء لكنت إلى اليوم سعيداً شريفًا فى بلدى بين آل بيتى.. فلك الخزى، وعليك اللعنة.

فأجابت ونار الألم تحرق أحشاءها، والسم ·

يتمشى فى مفاصلها   كتمشى النار فى الحطب

– قد كرهتك، قد كرهتك. فأنت أبغض الناس إلىَّ.. ياللمروءة.. أسعفونى بقليل من الهواء، إنى لا أريد أن أموت

– بل تموتين.. فإنى آليت ألاَّ أتساهل معك فى شىءٍ ولقد أبيت إلا أن أترك أحبائى الصادقين من أجلك فعلت، ولكن زالت الغشاوة عن بصرى بعد ذلك فرأبت ما لم آكن آرى، فلست أمنحك شيئًا مما تريدين، فإنى لا أرضى أن أكون أضحوكة للناس يستهزئون بى ويقولون، هذا هو الذى وطن نفسه على الموت مع خليلته، ثم غلب الجبن عليه فضعفت نفسه ففر من الموت. لا. لن يكون كذلك.

– وماذا علينا من استهزاء الناس ؟ وهل تترك الحياة من أجل هذا؟
– أَلَيْسَ إن قولهم ألف مرة هرب أخزاه الله. خير من قولهم مرة واحدة. مات رحمه الله

– الحياة الحياة. لا بد لى من الحياة.

– لا سبيل إليها.. فقد اخترت الموت. فموتى..

– فتوقدت نار الغيظ فى قلب (أليس)، فعاد إليها شيء من قوتها الزائلة، فحاولت النجاة من يد (ڤكتور) لتفتح النافذة لكنها لم تقو على التملص من يديه، فدانت لقوته وسقطت فاقدة العزم غائبة الرشد، أما هو فلبث يقاوم الألم بقوته الهرقلية[1] ويدافع حب الحياة بما بقى له من القوة الفكرية هنيهة من الزمن ثم صاح:

– (مارى، مارى) صلى علىَّ. ربى أسألك الرحمة والمغفرة.

فقالت (أليس):

جاء الرقاد المنتظر، فهذه النهاية... أوَّاه. لعنت أنت أيضًا وأغمضت بعد ذلك عينيها ولم تتحرك فمسها (ڤكتور) فإذا هى كالجليد، فقال قد ذهبت فى سبيلها وانتهى الدور إلىَّ، ثم أطلق عنان فكره فى مجال الخيال، فتصور كل نفيس وكل عزيز مما سيتركه فى هذه الدنيا حتى كأنما هو حاضر لديه، وذكر أيامه السالفة فى (بواتو) بين الوادى والغاب والروض والغدير، ومن العجب أنه لم يذكر الفتاة المنطرحة بين يديه بلا حراك، ولم يشعر فؤاده بشىءٍ من الأسف عليها. بل لا عجب فهكذا خلق القلب الإنسانى.

كل داءٍ لـه عـلاجٌ يرجـى معهُ للسقيم نيل الشفاء
غير داء القلوب إن حل بغضٌ بعـد حب فما لـه من دواء

---

(١) هرقل بطل مشهور من أبطال اليونان الأقدمين ، أو من رجال أساطيرهم يضرب به المثل فى القوة

ثم اشتد الألم على (ڤكتور) وأحس حرارة السم فى بدنه، فصاح وا ولداه... وا شوقى إليكما.. ثم استولى عليه الخدر والدوار، وضعفت ركبتاه عن حمله ولكنه لم يفقد رشده فى الحال، بل بقى مبصراً مميزاً ما حوله يستغفر الله ويسأله العفو والرحمة حتى غلب الألم وحرارة السم عليه، فسقط على السجادة تحت قدمى عشيقته وهو فاقد الرشد.

قد سمعنا أخبار أهل الهوى ممـ   ـن مضى عن مصارع العشاق

فرأينا من مات شوقا ووجدا   ورأينا من مات يوم الفراق

وحكوا أن منهم من قضى الحـ   ـب سرورا بالقرب حين التلاقى

وهى إن صح ما حكوه أحاديـ   ـث هوى ما بطنه اليوم باق

إنما حيَّر العقول محبٌّ   ضمهُ والحبيب بردُ العناق

راح يبغى موتا لا هلاك من يهـ   ـواه من بعد نفرةٍ وشقاق

يفعل الحقد فى قلوب ذويه   فعل نار الجحيم بالإحراق

(٨)

عفا الله عمن صير الهمَّ واحداً   وأيقن أن الدائرات تدورْ

تروح لنا الدنيا بغير الذى غدتْ   وتحدثُ من بعد الأمور أموراً

وتجرى الليالى باجتماعٍ وفرقةٍ   وتطلع فيها أنجمٌ وتغور

ويطمع أن يبقى السرور لأهله   وهذا محالٌ أن يدوم سرورَ

* * *

قائد الغفلة الأمل   والهوى قائد الزلل

قتل الجهل أهله   ونجا كل من عقل

لم تنس أن (ڤكتور) لم يكتم عن زوجته مسيره إلى (أوتوبل) تلبية لدعوة المركيزة الحسناء بل أخبرها الخبر وأظهرها على كتاب الدعوة ، فما منعته من إجابتها ، ولكن لم تلبث بعد مسيرة أن اعتراها القلق والارتياب ، فقصدت الكونتة (دى سرزول) شفيعتها ونصيحتها الصادقة الأمينة ورأت الكونتة على وجهها علائم الاضطراب ، فقالت

– ما وراءك أيتها العزيزة ؟ وما سبب اضطرابك؟

– كنت بالسعادة والهناء أولى وأحق بعد إذ ردت إلىَّ العناية الربانية زوجى ، لولا إنى لا أستطيع إزالة الاضطراب عن نفسى ، ولا أدرى لذلك سرا . بل أدريه ولا أخفيه عنك، إن (ڤكتور) سار إلى (أوتوبل)

– وما معنى هذا الكلام؟!

– سار ليلقى المركيزة ، ويودعها الوداع الأخير.

– يودعها الوداع الأخير! اسمعى ما أقوله يابنية: إنك ذات صبر وجلد خارق للعادة ، وقد احتملت من صنوف العذاب ما لا يحتمل ، فلا يليق بك الاغترار فى مثل هذه الحال بل اعلمى أن زوجك وعشيقته إن تلاقيا اليوم للوداع ، فإنهما يجتمعان غداً لتجديد عهد الحب ، ولو كنت من أهل الاختبار لأحوال أرباب الغرام لعلمت أن الوداع الأخير ، إنما يكون لا يودع المحب حبيبه فادرعى الصبر أيتها العزيزة ، واتقى به الغم انقضى شىء مما تأملين

– كيف يكون ذلك وقد أقسم لى الأيمان المغلظة.. وكتبتْ له هى بذلك.

– كل هذا ممكن ولا أجيب عنه شيئًا ، وإنما أقول. هل تلاقيا؟ فإن كان ذلك ، فالأمر ما أوضحت لك .

– وهل تحسبين (ڤكتور) من أهل الخديعة يا سيدتى؟!

– لا. ولكنه مخدوع مغرور ، وقد سار من المنزل بنيةٍ صافية ، مقتنعًا بأنه لن يرى مدام (ڤلمورين) بعد هذه المرة مكابداً أشد العذاب من الفراق العتيد ، موقنًا بأنه أقوى من أن يغلبه ميل نفسه ، فلما رآها اللحظة الأولى أنسى كل هذا ، ولم يذكر سوى الحب .

– إذن يحبها حبا عظيماً .

– مثل حب سائر الناس. والحب وإن اختلفت مظاهره فى الزيادة والنقصان ، فإن نتائجه متشابهة إلا مدة البقاء ' فإن طولها وقصرها منوطان بأحوال الزمان ، وأحكام الأيام ، وبما يكون فى العشيقة من الذكاء والدهاء .

– ما أحبنى إلا مدة قصيرة جدا .

– كان ذلك لازماً عن حالك وطباعه ، ولم يكن غيره بالإمكان، فأنت لكونك زوجته لم يكن يحول من دونك مانع ولا يحدث فى أمرك حادث ، بل كان شأنك واحدًا على اختلاف الأيام، فلزم أن يكون لهذه الحالة نهاية ، وهو كان واسع مجال الخيال، متوقد الذهن، مستور جمر التصور برماد السذاجة ، فلم يكن يستطيع المقام في دير قديم بـ (بواتو) لدى صغار بيكون ، وشيخين وقورين ، وامرأة ذات احتشام ، بل احتاج إلى ما يذهب عنه الضجر ، وتمنى لو لقى من يضربه على أصابعه لتنفتح وتمتد ، فلو لم ير المركيزة الحسناء لوقع فى أشطان بغى من بنات العشق يحسبها ملكًا هابطا من السماء وكان ذلك شراً من وقوعه بهوى مدام (قلمورين) لإمكان أن ينفق كل ما له فى هوى البغى ، ولقد أخذ الآن فى الرجوع إلى رشده وسوف يبلغه بعد حين فلا تيأسى من رحمة الله .

– أرجوك أن تأذنى لى فى البقاء لديك مدة غيابه ، فقد أوصيتهم فى المنزل أن يطيروا الخبر إلىَّ متى رأوه مقبلاً ، ولا أريد أن أرى الأولاد

الآن ، فإن رؤيتهم تضعف عزمى ، فلا أتمالك أن أذرف الدمع وهُمْ وا رحمتاه . لهم يسألوننى عن سبب البكاء...

– على الرحب والسعة. نتناول العشاء ونصرف ما شاء الله من الليل معًا ، فإنى أعرف عذاب الريب ومقدار ما يدخل من السرور على قلب من لقى فيه صديقًا أمينًا ، فبسط لديه أمره وكشف له سره حتى كأنما ألقى عليه شيئًا من همِّه ، وقاسمه ما أعياه من بؤسه وغمِّه .

– لأنت ملك كريم أرسلت لهدايتى ، ووكلت بحمايتى ، ولولاك لمت كمداً ويأسًا ، وماذا ترين الآن؟ ألا يعود (تعنى ڤكتور) عمًّا قليل؟

– وا رحمتاه لسذاجتك إنك ما برحت غير عالمة بما تؤثر الشهوات فى النفوس .

– كيف هذا وأنا أحبه حبا عظيمًا لا يحتمل الزيادة ، أفليس هذا الحب من تلك الشهوات التى تؤثر فى الأنفس تأثيرًا شديداً؟

– لا. فإن حبك هو الحب المشروع الذى لا حاجة فيه إلى التكتم ، ولا محل للخوف والمحاذرة ، ثم إن عذابك فيه يتضمن عذوبة العلم بأنك إنما تقضين واجبًا ، وليس الأمر كذلك فى الشهوات .

ثم أقبل الليل ولم يأت (مارى) خبر عن (ڤكتور) فاشتد اضطرابها وجعلت تبعث بالرسول بعد الرسول إلى منزلها ولا يأتيها أحد بنبأ شاف ثة لت "كونتة.

– لم يأت يا سيدتى. لم يأت .

– إن رمت معرفة ما أراه فى الأمر فاعلمى أنى ما أظنه يعود الليلة فإن للمحبين حديثًا طويلاً «بعد» الافتراق .

– لعلك أردت «قبل» الافتراق .

– إنما أردت ماقلت وإن كنت لا تزالين فى ريب مما أقوله فسوف يثبته لك العيان يا بنية .

– آه أواه ما أصعب ماتنذرين به وما أهوله

ثم اشتد عليها الأسى والأسف فاسترسلت للبكاء حتى رق لها قلب الكونتة رحمة – والرحمة آخر مايبقى فى أنفس الشيوخ – فقالت

– خفضى عليك يا (مارى) . فلا بد لهذه الحالة من آخر .

– تظنين أنه لا يعود ... فما قولك فى مدام (قلمورين) أيمكن ألاّ تعود إلى منزلها

– إنها امرأة من اللواتى لا يفوتهن شيء من أسباب الاحتراز والاحتياط فلا شك فى كونها تداركت ما أشرت إليه، ثم إن الأحوال الحاضرة موجبة لتوقع المكروه من كل وجه ، ولذلك أخاف أن يكون اليأس قد حملها و(قكتور) على شيء من الأعمال البالغة حد الشطط.

– ما العمل؟ ما الرأى؟ ما التدبير؟

– أرى أولاً أن ترسلي إلى منزل مدام (ڤلمورين) من يسأل ، هل هي في المنزل؟ وإن لم تكن هناك فمتى تعود؟ ولا يكون صدور هذا السؤال عنك غريبًا بعد حادث (غرفة ڤكتور) ولا سيما أن المركيزة (ڤلمورين) يعتقد أن بينك وبين زوجته صداقة موثقة العرى

فأرسلت (ماري) خادمها فقيل له إن المركيزة سارت لزيارة شقيقتها في (لوسيان) ولا تعود إلا صباح الغد. فقالت الكونتة العجوز بعد سماع هذا الكلام.

– كنت على يقين من أنها تتدارك أمرها ولا تعدم في كتمه حيلة، فلننتظر إلى غد، بل الأولى أن نذهب الآن إلى (أوتويل) ، فهل تريدين ذلك؟

– أخاف ألاَّ يغتفر زوجي هذه الجرأة؟!

– إذن ننتظر ...

ومرت الساعات على هذه الحالة حتى انتصف الليل ، فقالت (ماري)

– لا بد لي من الرجوع إلى منزلنا يا سيدتي فقد يئست من أن أراه الليلة ، ولا أستطيع ترك الأولاد وحدهم وقتًا طويلاً . وسأدعو الله وأسأله الرحمة والسلامة ، ولا ألتمس المعونة إلا من جوده الواسع ، إنه جواد كريم .

– أسير معك يا بنيتي العزيزة ، فإني وإن كنت عجوزًا فما زلت أقوى على إحياء ليلة من الليالي.

وبعد ذلك خفت لمرافقة (مارى) ، فركبتا العربة المعدة ، فسارت بهما على عجل و(مارى) مطلة من النافذة تنظر إلى كل من يمر بها ، وتحسب كل من تراه (ڤكتور) ، وكانت الكونتة تقول فى نفسها·

– وا أسفاه عليها. إنى أرق لها ، وأعلم أن كل واحدة من النساء لا بد أن تصاب بمثل ما بها ولو مرة واحدة فى الحياة، وهل رأيت من شجرة لم يهزها الهوى؟

ولما بلغا منزل (ڤكتور) طارت (مارى) إلى الخدم تسألهم عما عساه أن يكون عندهم من خبر زوجها ، فلما علمت أنه لم يأت عنه خبر سقطت على الكرسى بالقرب من الموقد ، وجلست الكونتة إلى جانبها صامتة لا تجد ما تحدثها به ، فاستولى السكون والسكوت على الغرفة ، فلم يكن يسمع إلا حركة العربات عائدة بالمتأخرين من أهل الرقص ، وكانت (مارى) تتبع حركة العربة مصغية إليها على أمل أن تقف بالباب حتى ينقطع صوت صداها ، فينقطع أملها بذلك فتعود إلى حالتها من القلق والاكتئاب والخوف والاضطراب ، وفى تلك الساعة قرع باب المنزل ، ففتح ، فصعد الداخل الدرج ، وقرع باب الدار ، فصاحت (مارى) :

– هو ، هو .

ثم نهضت لتلقاه عند الباب فاستوقفتها الكونتة ، وقالت

– مكانك . دعيه يأت إليك ، فربما كان فى حالة لا يستطيع معها لقاءك .

فامتثلت وجبست تصغى الى قول المتكلمين عند الباب فى غرفة المدخل ثم صاحت

- وا خيبتاه هذا صوت امرأة.

ثم سارعت إلى الباب ، ففتحته ، فرأت مدام (درميلى) والدة المركيزة الحسناء فابتدرتها هذه بالكلام ، وقالت

- عفواً يا سيدتى عن قدومى إليك فى مثل هذا الوقت ، ولكن الأمر من فوق يدى والعذر فيه واضح وجيه ، لقد علمت أنك تنتظرين رجوع المسيو (ديلار) فهل تريدين أن تخبرينى بمكانه؟

- وفيم تسألينى هذا السؤال يا سيدتى ؟

- لو كان المعترض غيرك من النساء لما علمت كيف أجيب ، ولكنك صافية النفس كملائكة السماء ، ولذلك أخبرك أنى أفتش عن ابنتى ، وأعلم أنها توجد حيث يكون المسيو (ديلار) .

- هئنذا قادمة من هناك وقد سألت عنها ، فما عرفوا لها خبراً ، فعدت إلى المنزل ، فرأيت على مكتبها كتاباً باسمى تقول لى فيه إنى لن أراها ألبتة من بعده ، فإنها لم تقدر على فراق المسيو (ديلار) فنالنى من جراء ذلك قلق لا مزيد عليه فجئتك أنشدك الله أن تخبرينى بمكانهما .

- هما فى (أوتويل) .

- وهل أنت على يقين من ذلك ؟

- لا شك عندى ولا ريب .فقالت الكونتة :

- هذا الذى كنت أحاذره، فقد هربا معًا لا محالة .

- حبذا ما تقولين ، وإنى أسأل الله تحقيق ظنك .

- ما معنى هذا الكلام؟

- إنى. لا أخاف عليهما الهرب ، وإنما أخاف الموت. فإن ابنتى لتطلبه ولا تخشاه بما أعلم من حدة مزاجها ، والتهاب فكرها ، وحبها العظيم لـ(ڤكتور) .

- الموت. الموت. ويلاه وا مصيبتاه . طيروا بنا إلى (أوتوبل) .

ثم لم تلبث لتلقى على كتفيها شالاً يقيها البرد ، بل اندفعت إلى الدرج طالبة باب المنزل ، فتبعتها الكونتة ومدام (درميلى) ، فركبن العربة ، وصاحت (مارى) بالسائق إلى (أوتوبل) إلى (أوتوبل) ، انهب الأرض ، واقتل الخيل ركضًا فأطلق للفرسين العنان ، فسارا متباريين ، كأنهما فرسا رهان وكانت مدام (درميلى) قد عادت إلى حديث كتاب (أليس) وما فيه من المعاريض والأقوال المبهمة ، وكيف أنها ودعت آل بيتها من غير أن تظهر حقيقة الأمر أو تورد كلمة تدل على المكان الذى تقصده . غير أن (مارى) لم تكن تعى شيئا من الحديث ، بل كانت مشردة الفكر ضائعة

الرشد حتى وقفت العربة أمام درابزين الحديقة ، فوثبت من نافذتها ولم تنتظر أن يفتح السائق بابها وكان السكوت مستوليًا على البيت ، فلم تسمع منه صوتًا ولا حركة ، فطفقت تجر سلك الناقوس بعنف وقوة ولا تسمع جوابًا ، فقالت الكونتة

- قد ارتحلا وما فى المنزل أحد ، فصاحت مدام (درميلى)

- إنهما فى المنزل ، فأيقظوا أقرب حداد إلينا يفتح هذا الباب .

وكانت (مارى) مستمسكة بعروة الجروس تهزها هزا متداركًا غير متنبهة لشىء مما حولها حتى عاد الخادم بالحداد ، فاقتلع أقفال الباب ، فدخلوا الدار و(مارى) فى المقدمة تعدو عدو الصغار من غرفة إلى غرفة ومن مكان إلى آخر بلا ضوء ولا دليل ، وتنادى (ڤكتور) بأعلى الصوت ، فلا تسمع جوابًا ، ثم جىء بالشمع وأخذت مدام (درميلى) والكونتة العجوز تجوسان خلال الأماكن والغرف ، فرأتا غرفة النوم ومكان البليار والأندية كلها خالية ، ثم فتحتا مقعد المغسل ، فهب عليهما ذلك الأرج الشديد فاستوقفهما وصاحت مدام (درميلى) .

- إنهما فى هذا المكان - مشيرة إلى غرفة الزهر - فافتحوا الباب، وإن كان مقفلاً فاقتلعوه .

ففتح الباب واندفعت (مارى) إلى الغرفة فرأت المركيزة على المقعد و(ڤكتور) تحت أقدامها وهما كالجليد ، وليس فيهما حراك فصاحت

– طبيب طبيب . احضروا طبيباً ، فلعلهما لا يزالان بقيد الحياة

وقالت الكونتة

– اكسروا زجاج النوافذ والشبابيك ، وافتحوا مجارى الهواء ، فإن رائحة هذه الغرفة قاتلة .

وقد اعتنقت (مارى) زوجها باكية خافقة القلب من الوقوف بين الرجاء والخوف ، فكانت تبل وجهه بدمعها وتدعوه بأرق أسماء المحبين فلا تسمع منه جوابًا ، ولا تحس منه حركة ، ثم حملت المركيزة إلى سريرها وما برحت (مارى) معانقة زوجها حتى جاء الطبيب وأخذ فى معالجة المريضين بكل ما لديه من الأدوية ثم مضت على ذاك ساعة ولم يبديا حراكًا ، فازداد قلق (مارى) وسألت الطبيب عن رأيه ، فلم يكن جوابه شافيًا، فكانت تقول.

– ربى جد عليه بالعافية واجعلنى فداءه .

وما برحت تردد هذا القول أو ما بمعناه حتى قال لها الطبيب .

– سيشفى يا سيدتى بحول الله ، ولكن ربما احتاج إلى المداراة والملاطفة التامة مدة طويلة من الزمان .

– لك الشكر لك الشكر يا سيدى ولو وهبتك حياتى لما كان ذلك وافيًا بحقك علىَّ .

وحياتهم وحياتهم قسماً وفي عمرى بعير حياتهم لم أحلف

لو أن روحي في يدى ووهبتها لمبشَرى بشفائهم لم أسرف

وكانت المركيزة قد أخذت في العود إلى الحياة أيضًا ، ففتحت عينيها ، ووالدتها جاثية بين يديها ، ترقب حركاتها وسكناتها ، فكان هذا المنظر مما تلين له القلوب. أما الكونتة فإنها لم تخرج عن طورها المألوف ولم تتنازل عن شيءٍ من وقارها المعروف ، بل جلست على تكأة في الغرفة وجعلت تراقب الكل متداركة ما تذهل عنه (ماري) ومدام (درميلي) بما فيهما من القلق ، وقد ظهرت لها النتيجة بتمامها ، فكانت تبتسم للأمر في سرها ، ثم قالت لـ (ماري)

– احمدي الله أيتها العزيزة واجب حمده ، فقد رد إليك (ڤكتور) مرتين ، وليطمئن قلبك ، فقد صرت في مأمن من المناظرة والشريكة .

– أتقولين جدا ؟!

– لا ريب عندي فيما أقول ، فإن رجلاً من مثل زوجك يصبر على كل شيء إلا السخرية وهذه الحالة غير خالية من أسبابها كما ترين .

ثم استَعَطَتْ (أي جعلت في أنفها سعوطًا) ، واستوت على المقعد مرتفعة الرأس .

وأخذ (ڤكتور) في الرجوع إلى حالة الرشد قبل المركيزة ، فلما أمكنه الكلام قال :

- أين أنا؟ ماري. ياعجباً. اللهم لك الحمد فقد رأيتها مرة أخرى .

- تمهل شقيق الروح ، فعماً قليل نتحدث وأهدأ الآن ، فأنت محتاج إلى الراحة المطلقة .

- صديقتي. حبيبتي. العفو. المغفرة .

فألقت يدها على شفتيه بلطف ليسكت ، فلايزعجه الكلام وهي راقصة القلب فرحاً ، لا تدرى كيف تعلن سرورها وسعادتها ، وهو يجيل نظره في المكان الذى هو فيه ، ثم قال بصوت منخفض

- أحب أن أسير من هذا المكان .

فأجابه الطبيب عما قليل يتيسر لكما ذلك يا سيدتى أما الآن فإن كنت تبغى الحياة فلا بد لك من التزام السكوت التام

- أتريدين يا (مارى) أن أحيا؟!

- جعلت فداك إنى لا أحتمل فقدك ، ولا أعيش بعدك .

- إذن سأصمت أيها الطبيب .

أما (أليس) فلما عاودتها الحياة وعادت إلى حالة الرشد ضجت بإظهار الفرح العظيم ، وترامت على أمها تعانقها وتمرح ما شاءت الخفة ، فنهاها الطبيب ومن حولها عن الحركة والكلام ، وقالوا إن لم تصمت وتلتزم السكون فلا سبيل لها إلى الشفاء

– إن كان لا بد من ذلك فى حصول الشفاء فإنى ممتثلة ما تأمرون .

وكانت (مارى) تتوقع أن يتفاوض الحبيبان فيما مر بهما وما صارا إليه ، فكانت تبذل المجهود لا جتناب ذلك مخافة أن يزعج الكلام زوجها ويتبعه لكنها لم تستطع إخفاء أحدهما عن الآخر ، لأن الباب الذى بين الغرفتين كان مفتوحاً للهواء ، فلما أفاقت مدام (ڤلمورين) دنت (مارى) من زوجها فقبلته وكاشفته فى ضمن تلك القبلة ما تخاف ، فصمت واكتفى بالسكوت جواباً ، وكانت الكونتة تنظر إليهما متتبعة ما يفعلان ، فلما صمت (ڤكتور) ابتسمت وقالت لـ (مارى)

– إنه غير مبال بما أوجست منه خوفاً وقد استوى عنده حضورها وغيابها ، فإن الحب الذى كابداه قد مات ، فلن يذكره أحد منهما قط ، وإنما يليق بالشعراء أن يذكروه ، فإنه من ظريف معانى الشعر موت الهوى تحت الزهر

وقد صحت ظنون العجوز وصدقت أقوالها جملة وتفصيلاً ، فما جرى بين (ڤكتور) و(أليس) عتاب ولا خطاب بل انفصلا من غير حديث ولا كلام وحمل كل منهما إلى منزله ، فأقاما حينا من الزمن يمرضان ويداويان حتى حصل لهما الشفاء التام ، فقالت الباريسية الحسناء ، لأمها ذات يوم

– أمَّاه. لقد كفانى ما رأيته عِبْرة ، وشفانى من داء الحدة والطيش، فلست متعدية من بعده حدود الرشد والحكمة .

– وأنا قد عزمت على بيع أرضنا التى فى (بواتو) – بلد (ڤكتور) – وكان (ڤكتور) على مثل حالة المركيزة من السلوِّ ، ينشد بلسان الحال قول من قال:

إنَّنى بعد بعدكم قد سُقيتُ — من مُدام السلوَ حتى رويتُ

لم يزل بى ساقى التسلى يساقيـ — ـنى كؤوسًا من بعدها ما ظميتُ

نزع الحبَّ من فؤادى فسُبحا — ن إلهٍ يحيى الهوى ويميتُ

قد جعلت الهوى وعدت كأنى — من سلوى ما كان ما قد هويتُ

وكأنى على الصبابة والتبـ — ـريح والشوق والجوى ما ربيتُ

وكأنى على مفارقة الرو — ح لجسمى يوم النوى ماخشيتُ

يا خليلىَّ أخبرانى بصدقٍ — كيف طَعْم الهوى فإنى نسيتُ

ففى صباح يومٍ من شهر نيسان راقت سماؤه ، ورق هواؤه وتألق بأشعة الشمس ضياؤه أتته مدام (سرزول) زائرة ، فرأته جالسًا بالقرب من (مارى) وأولادهما يلعبون على البساط متباغمين ، وطيور نيسان تغرد فى الحديقة ، فتذهب الأشجان ، فطابت نفسها وقرت عينها ، فجلست تتأمل فى محاسن هذه الهيئة المنزلية ، ثم قالت لـ (ڤكتور) وزوجته:

– لقد أفادتكما نصائحى خيرًا عظيمًا ، فهل لكما أن تقبلا منى هذه النصيحة الأخيرة ؟

– وما هى ؟ تكلمى ولك الفضل

– لا بد من رجوعكما إلى (بواتو) فقد اشتهر أمر (أوتوبل) ، وأخذ الناس يتحدثون فيه وصار اسمك يا (ڤكتور) مضغة فى أفواههم . فلست تقوى على الثبات فى هذا الموقف الضنك بباريس .

فقالت مارى لزوجها

– ما قولك فى هذا الرأى ؟

– هذا جُلُّ المراد وغاية الأمنية ، فقد عظم شوقى إلى المنزل الأول ، فما أذكر إلا حدائقه ، ورياضه ، ومنازهه ، وغياضه ، والغدير ، وأشجاره ، والحقل ، وأزهاره كما رأيتها والموت نصب عينى، ألا إن المقام بينك وبين أولادنا ووالدينا فى تلك الأماكن الصافية السماء لهو السعادة الحقيقية ، فكل ما خلاه من لذة الحياة كاذب باطل كالآل يحسبه الظمآن ماءً

– وأين تترك ذاك الطمع ؟

– مات الطمع لا رجع .

– وفكرك المتوقد؟!

– جعلته وَقْفًا عليك. فهلمَّ نسافر

فقالت الكونتة :

- بارك الله فيكما يا ولدى، وأنت يا (ڤكتور) بقى لك عندى نصيحة واحدة إياك وكثرة الهواجس.

- لا تخافى علىَّ يا سيدتى ، فلست أهجس واللذة الحقيقية لدى .

* * *

كانت الكونتة (سرزول) و(مارى) تتراسلان بعد سفر (ڤكتور) وآل بيته إلى (بواتو) فعلم أن مراسلتهما أن باريسيتنا الحسناء صارت من المتحرزات على أنها ما برحت شديدة الحرص على الزينة والتبرج، وقد تناست (ڤكتور) فلم تكن تذكره البتة خجلاً مما وقع لها أو سلوا أما هو فأقام ببلده بين زوجته ووالده وولده منقطعًا إلى الاهتمام بشئونه من الزراعة والصناعة متمتعًا من حب ذويه بنعيم مقيم ومن نعومة البال بهناء عظيم ، وكان إذا ذكر ماضيه ضحك منه، وإن نظر إلى آتيه ابتسم له، وإن تأمل حاله الحاضر حمد الله فى الباطن والظاهر والأول والآخر .

يا زمان الشباب سقيًا ورعيًا ... وسلامًا يا خير كل زمان

قد ظننَاك يا نعيم مقيما ... ما ظنناك نشأة النشوان

نحسبُ العمر فيك دهرًا طويلاً ... والليالى تمرُّ مرَّ الثوانى

كم نَستقناك نشق نفحة طيبٍ ... ورَشفْناك رشف خمر الدنان

وشُغلنا عن الحياة بلَهْوٍ ... وانصرفنا إلى الوجوهِ الحسانِ

وسكرنا فما دنا الصحو حتى … آذنتنا السنون بالحرمان

غير أن الشباب لا بد فيه … من غرور يسطو على الشبان

أى غصن ما حركته رياح … أى قلب لم ترمه عينان

فأخو الرشد من صحا قبله من … غفلة الجهل قبل فوت الأوان

وتملى من الهناء بما يبـ … ـقى صحيحا على ممر الزمان

فانتهب فرصة الصفاء انتهابا … لا تظن الصفاء طلا ثان

وادخر من صباك جسما معافى … فالصبا والصفاء لا يخلدان

وتمتع بذات خدر حليل … ناعما بالرفاء والولدان

فهى تهديك من بسيمات فيها … منعشات الأرواح والأبدان

وحواليك من بنيك عيون … لا عيون المهى ولا الغزلان

ووجوه تغنيك عن شعر موسى[1] … ولياليه أربع أو ثمان

وخدود أشهى وأطرى وأندى … من دموع الصباح فى نيسان

ولهم فى حديثهم نغمات … يا حنينى لنغمة الكروان

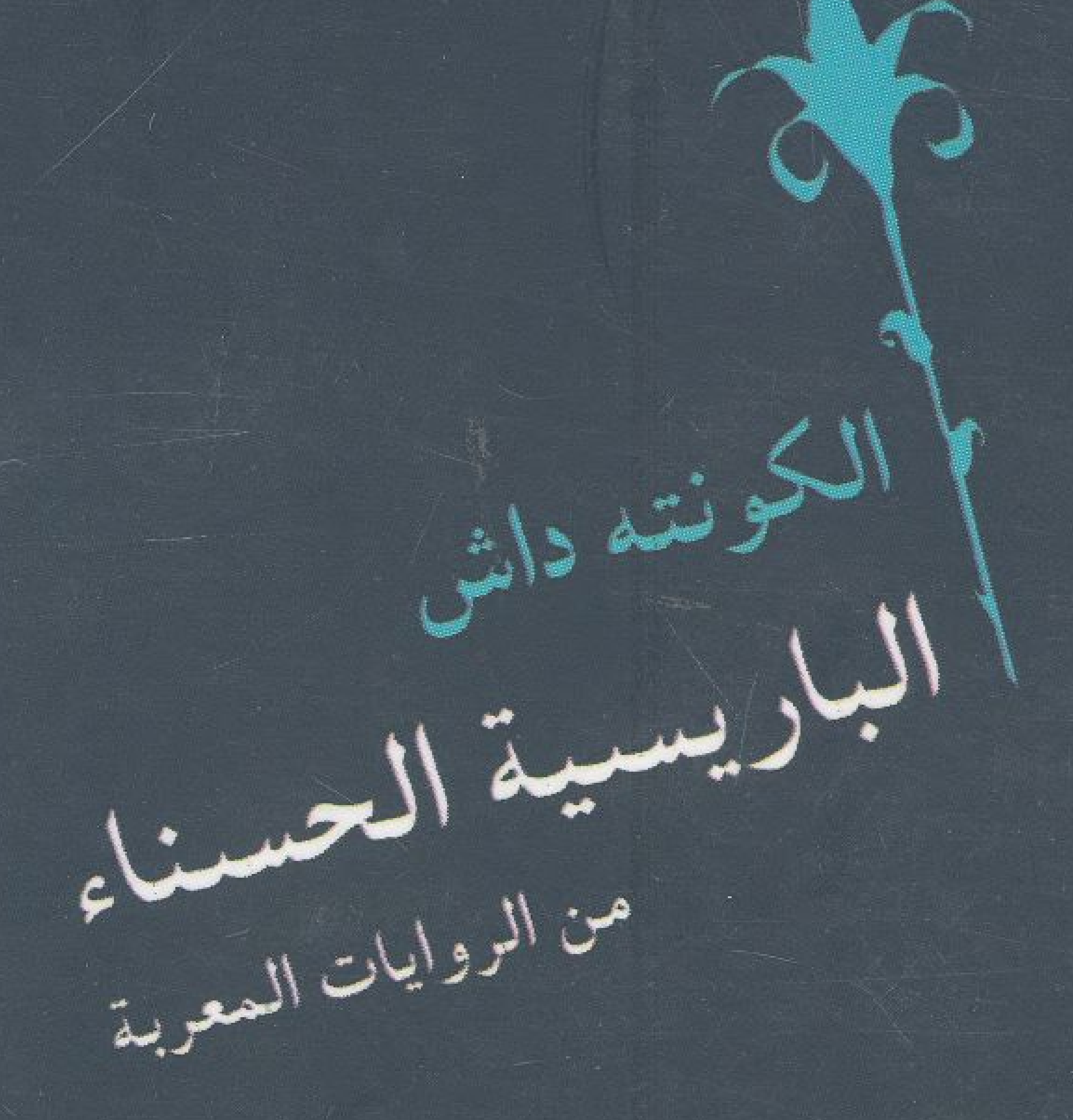
هذه لذة الحياة وهذى … أيها الناس غبطة الإنسان

---

(١) هو (ألفريد موسى) الشاعر الفرنسى المشهور

التصحيـــح اللغـــوى : أكرم حمودة
الإشـــراف الفنـــى : حسـن كامل
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبـد





الكونته داش

الباريسية الحسناء

من الروايات المعربة

نشر أديب إسحق " الباريسية الحسناء " تأليف الكونته داش، بعد عودته إلى بيروت ومغادرته مصر (منفيًّا أو مطرودًا)، وهذا يعنى أنها ظهرت على الأغلب فى الشهور الأولى من سنة 1883م، وقد حققت نجاحًا ووجدت قبولاً بين القراء.

وقد حدد أديب إسحق طريقته فى الترجمة، إنه يعرِّب ولا يترجم، غير أنه ارتكب فى هذا العمل شيئًا آخر، لا هو بالتعريب ولا بالترجمة، بل يمكن أن نسميه تدخلاً فى صميم العمل، أو لنقل مشاركة فى التأليف، إن صحت التسمية، فقد أقحم أشعاره داخل العمل، وأشعار غيره من الشعراء العرب، وتدخَّل فى بناء العمل، فختمه بقصيدة شعرية كتبها صديقه " الأ الكاتب اللوذعى إسكندر أفندى إلعازار"، تستقبل بعد طول انقطا وأفكارًا جديدة، ولم تكن الحدود واضحة بعد بين التعريب والتر وبين التأليف.

